نزار قباني

شاعر النساء



د. أحمد الطويلي

د. أحمد الطويلي



حلّي الغلاف وجها وظهرا بلوحتين جميلتين للرسام المبدع نجا المهداوي، وهما من أعمال فنيّة متميزة كان الشاعر نزار قباني اطّلع عليها في لندن يوم 17 ماي 1994 وأعجب بها وقال :

«نجا المهداوي، ليس رساما مبدعا فقط ولكنه خلاصته الشعر، والرسم معا. لوحاته لا تشبه لوحات الآخرين، وآفاقه لا تشبه آفاق الآخرين... وألوانه أغنى من ألوان قوس قزح. باسم الشعر أحييه... وأحيي أصالته وتفرده... إنّه بكلمة واحدة (خرافة)...»

وإكراما لروح نزار قباني سمح لنا صديقنا الفنان الكبير نجا المهداوي بتجميل غلاف هذا الكتاب بهذين الرسمين البديعين فله جزيل شكرنا وعظيم امتناننا.

مقدّمة

قال نزار قباني : أنا مؤسّس أوّل جمهوريّة شعريّة أكثريّة مواطنيها من النساء»، وقيل له : ما هي مهنتك ؟ قال : مهنتي عاشق. وسئل من شهاداته قال : شهادتي ليسانس في العشق.

وسئل مرّة : من أنت؟

فأجاب : من أنا ؟... أنا شاعر لا يزال يفتّش عن الحرف التاسع والعشرين في الأبجديّة العربيّة(...) أحاول أن أخترع شجرا.. وقمرا.. وبساتين، فاكهة ونخيلا وكلاما عن الحب. الحرف التاسع والعشرون هو الكنز المسحور الذي مات ألوف الشعراء قبل أن يكتشفوه، وسيموت ألوف من الشعراء على أمل اكتشافه.

ووصفه بعض النقاد بأنّه شاعر التفاصيل الصغيرة لدى المرأة مثل أدوات الزينة والأزياء والعطور ورافعات النهود.

قال عنه عبّاس محمود العقاد إنّه دخل مخدع المرأة ولم يخرج منه. وقال سعيد عقل : لا يوجد عند نزار قباني سوى خطيئة واحدة هي أنّه يحبّ المرأة.

كان نزار قباني قامة سامقة مثل نخيل بغداد أو البصرة أو دمشق أو بلاد الجريد جنوب البلاد التونسية، ولقد أحسنت جريدة لومند الفرنسية Le Monde التعريف به حين قالت :

«الشاعر العربي السوري الأصل، نزار قباني الذي توفي عن 75 عاما في لندن، كان دبلوماسيا سابقا، ولد عام 1923.

وقد كانت أشعاره محبوبة على الصعيدين العاطفي والسياسي في كل أنحاء العالم العربي، لتناوله قضايا جريئة خاصة على الصعيد السياسي، وقد كان لوصفه الجريء للمرأة وعالم الحب، مريدوه ومنتقدوه في مجتمع يغلف تعامله مع الجنس اللطيف بشيء من الحذر والحياء، كما تعرض لموجة انتقاد ظالمة من قبل بعض النقاد والأدباء لتأليفه أشعارا تتحدث عن سحر الأنوثة وعالم العطور واللقاءات الساحرة. غير أنّ نزارا لم يأبه لهذه المحطات، وواصل كتابة مواضيع شعره المفضلة، وأسس دارا للنشر، وقام بعض المغنين الكبار في العالم العربي بتلحين وأداء أشعاره، وفي الواقع إنّ شهرته قد نبعت من تعبيره الصادق، وتصويره الواقعي، وموسيقاه المنسجمة في أشعار الجمال والحبّ والعواطف والحرية.

وقد كانت وفاة ابنه، ثمّ الموت المفاجئ لزوجته في حادثة تفجير السفارة العراقية في بيروت عام 1981 نقطة تحوّل كبرى في شعره، اختلط فيها الحزن الشخصي مع الهزيمة العربية، اختفى فيها الحبّ وجفّت ينابيعه في دواخله، وانتهج الجانب السياسي في تصويره للهزيمة والمرارة التي سادت العالم العربي(1).

* * *

يعرّف هذا الكتاب بنزار قباني هذا الشاعر الذي خصص جل شعره لحب المرأة واتّفق جميع النقاد على أنّه شاعر المرأة. وقد قسمنا الكتاب إلى ثلاثة أبواب :

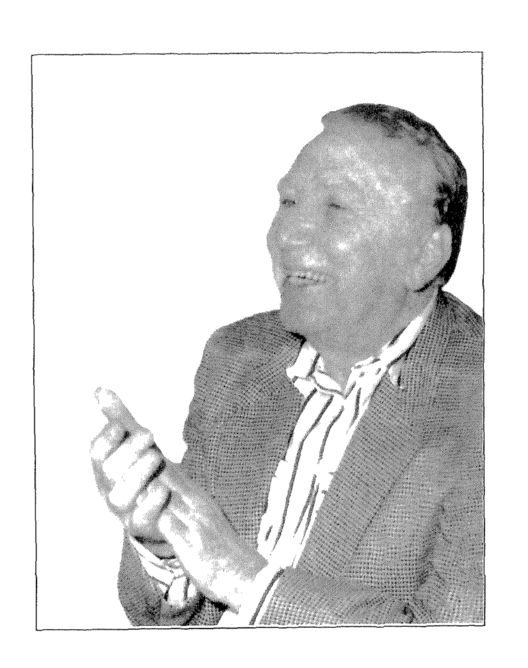
1 ـ ظروف نشأة نزار قباني وأطوار حياته.

2 ـ نزار قباني شاعر الغزل والأغاني، معجمه الشعري، وشعره الخاص بالتفاصيل الصغيرة لدى المرأة.

3 ـ قراءات في عدد من دواوينه.

1) نشر هذا التعريف مترجما للعربيّة يوم 17 ماي 1998 بجريدة «الشرق» القطرية بتعريب وفاء النويري.

نزار قباني: ظروف نشأة وأطوار حياة



نزار قبّاني

ولد نزار قبّاني في حيّ من أحياء دمشق القديمة يسمّى مئذنة الشحم في 21 مارس 1923، في بيت متكوّن من طابقين، الطابق الأوّل مصنوع من الرّخام والأعمدة الرّخامية يتسلّق عليها شجر الياسمين، تتوسّطه باحة تتحلّى بشجر اللّيمون وبنافورة ماء، يقول نزار قبّاني :

«كنت أعيش في حديقة من حدائق الأزهار وأمّي كانت حرفتُها أن تنبت الزّهور، فكلّ هدفها في الحياة هو تربيتنا، وتربّي معنا الورد والزهور... نشأنا على صداقة مع الورد والزهر والرّياحين، كنت في طفولتي كأنّني أنام على سجّادة من العطر (...) أعطاني هذا البيت المادّة الأوّليّة للشعر دون أن أدري».

لقد نشأ نزار قبّاني في محيط رومنطيقي تتضوع فيه روائح الياسمين واللّيمون، ويتميّز بألوان وعطور وخضرة مزروعة في رحاب البيت، ويعني الماء المنبجس من النّافورة الحياة والحركة ونُسغ الحياة. ولذلك يمثّل نزار شعره بشجرة تظلّل جميع العاشقين والعاشقات.

نشأ نزار في أسرة دمشقيّة عريقة تحدّث عنها في كتابه «قصّتي مع الشعر»، وفي حواراته، فأبوه كان يصنع الحلوى يقول عنه : «لم يكن أبي غنيّا ولم يجمع ثروة، كلّ مدخول معمل الحلويات الذي كان يملكه كان يُنفق على إعاشتنا وتعليمنا وتمويل حركة المقاومة الشعبيّة ضدّ الفرنسيين(. . .) إنّه أنفق خمسين عاما من عمره يستنشق روائح الفحم الحجري، ويتوسّد أكياس السكّر وألواح خشب السّحاجير، وكان يعود إلينا من معمله في زقاق معاوية كلّ مساء» .

ويتذكّر نزار قبّاني كيف كان أبوه يرجع إلى البيت من معمله مطلي الوجه بغبار الفحم، ملطّخ الثياب بالبقع السوداء والحروق . ويدافع نزار عن نفسه حينما اتّهم بالبرجوازيّة، لما يلوح من كبريائه وعيشته المترفة إذ كان أميراً للشعر في عصره، قد نسج كلّ شعراء زمنه إكليلاً من الفخر والسؤدد على رأسه، واعترفوا به متقدّما عليهم في الشعر، فقد نصبوه ملكا عليهم. يقول نزار مجيبا من ادّعى أنّه من طبقة برجوازيّة : «أيّ طبقة وأيّ دم أرزق هذا الذي يتحدّثون عنه؟ إنّ دمي ليس ملكيّا ولا شَاهانيا، إنّما هو دم عادي كدم آلاف الأسر الدمشقيّة الطيّبة التي كانت تكسب رزقها بالشّرف والاستقامة والخوف من اللّه . »

ويتحدّث عن أبيه فيقول : «لم يكن أبي متديّنا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، كان يصُوم خوفا من أمّي، ويُصلّي الجمعة في مسجد الحي في بعض المناسبات خوفا على سمعته الشّعبيّة. كان الدّين عنده سلوكا وتعاملاً وخلقا، وشهد اللّه أنّه كان على خلق عظيم. دائما كان في ماله حق للسائل والمحروم ودائما كان في قلبه مكان للمعذّبين في الأرض. والرغيف في منزلنا كان دائما نصفين، نصفه الأوّل لغيرنا، والنصف الثاني لنا.. لم يكن أبي يفصل الدّين عن إطاره الجمالي لذلك كان يقضي السّاعات منصتا بخشوع واستغراق إلى صوت المقرئ العظيم الشيخ محمد رفعت، كان يعتبر صوته نافذة مفتوحة على نور اللّه... وواحة من واحات الإيمان»(1).

ويواصل نزار قبّاني الحديث عن أبيه فيقول : «كان تفكير أبي الثوري يعجبني، وكنت أعتبره نموذجًا رائعا للرّجل الذي يرفض الأشياء المسلّم بها ويفكّر بأسلوبه الخاص، بالإضافة إلى شبهي الكبير له بالملامح الخارجيّة، فقد كان شبهي له بالملامح النفسيّة أكبر، وإذا كان كلّ طفل يبحث خلال مرحلة طفولته عن فارس ونموذج وبطل، فقد كان أبي فارسي وبطلي.. ومنه تعلّمت سرقة النّار»(2).

1) قصتي مع الشعر : ص 75.

2) نفسه : ص 76.

كان نزار يتذكّر دوما والده في مجلسه في صحن الدار، وأمامه فنجان القهوة ومنقلته وعلبة تبغه وجريدته، وكانت تتساقط على صفحات الجريدة كلّ خمس دقائق زهرات الياسمين البيضاء «كأنّها رسالة حب قادمة من السماء».

أمّا والدة نزار قبّاني فقد حدّثنا عنها أنّها «يَنبوع عاطفة يعطي بغير حساب»، كانت تفيض عليه بالحبّ والحنان، ويشعر بأنّها تعتبره ولدها المفضل وتخصّه دون سائر إخوته بالطيّبات، وتلبّي مطالبه الطفوليّة، وكانت أرضعته إلى سنّ السابعة من عمره، وتطعمه بيدها إلى سنّ الثالثة عشرة. يقول عنها :

«لقد كبرت وظللت في عينيها دائما طفلها الضّعيف القاصر، ظلّت ترضعني حتّى سن السابعة، وتطعمني بيدها حتّى الثالثة عشرة. وسافرت بعد ذلك إلى جميع قارات الدّنيا، وظلّت مشغولة البال على طعامي وشرابي ونظافة سريري، وتتساءل كلّما جلست الأسرة على مائدة الطعام في دمشق : ترى هل يجد الولد في بلد الغربة من يطعمه ؟».

ولعلّ هذا الحب الجارف الذي فاضت به الأم على ابنها نزار هو الذي جعله يحبّ المرأة حبّا جارفا، وجعله شاعر المرأة على الإطلاق، وجعله يفيض حبّا على كلّ النساء، وجعله يختار عناوين دواوينه من معجم المرأة، فهذا ديوان عنوانه «أشهد أن لا امرأة إلاّ أنت»، وهذا عنوان آخر : «هكذا أكتب تاريخ

النساء»... إلى غير ذلك من العناوين، وقد جعل هذا الحب الذي غمرته به أمّه بل هذا الحنان المتدفّق الذي ألبسته إيّاه عديد النقّاد يفسّرون به حبّ نزار للنساء، «وولعه بوصف المرأة ومفاتن جسدها وأدوات زينتها حقبة طويلة من حياته»(1).

ورغم العلاقة العاطفيّة التي كانت تربط نزار بأمّه فهو ينفي أن تكون هُنالك نقاط التقاء بينهما على الصّعيد الفكري، لكنّه يبيّن تأثيرها النّفساني العميق في تكوينه الذّاتي وميله لعشق النّساء ؛ إذ أنّ الأمّ الجميلة الرّائعة في السّلوك والمثاليّة في الحنان والتّفاني في خدمة الأولاد تجعل قلب الطفل متفتّحا للحبّ، وذراعيه مبسوطتين للعطف وللحنان، وتجعل الولد عجينة من الإحساس المرهف والأخلاق الطيّبة، يقول نزار عن أمّه :

«أمّا على الصعيد الفكري فلم يكن بيني وبين أمّي نقاط التقاء، فقد كانت مشغولة في عبادتها وصومها وسجّادة صلاتها، تسعى إلى المقابر في المواسم، وتقدّم النّذور للأولياء، وتطبخ الحبوب في عاشوراء، وتمتنع عن زيارة المرضى يوم الأَربعاء، وعن الغسيل يوم الإثنين، وتنهانا عن قصّ أظافرنا إذا هبط اللّيل، ولا تسكب الماء المغلّى في البالوعة خوفا من الشياطين، وتعلّق أحجار الفيروز الأزرق في رقبة كلّ واحد منّا خوفا علينا من عيون الحاسدين»(2).

1) نبيل خالد أبو علي : نزار قبّاني شاعر المرأة والسياسة، مكتبة مدبولي.

2) قصتّي مع الشعر : ص 74.

ولنزار قبّاني خمسة إخوة، هم رشيد، ومعتز، وصباح، وكان يشغل منصب مدير الإذاعة السوريّة، وهدباء، ووصال.

وتوفّيت وصال في ريعان شبابها، انتحرت بسبب فشلها في حبّها. كان موتها مصيبة كبرى نزلت على قلب أخيها نزار، وكان لهذه المأساة تأثير كبير في نفسه، واعتبر وصال شهيدة الحب يقول عنها إنّها كانت عاشقة عشقا أجمل حتّى من عشق رابعة العدويّة، كتب عنها هذه السّطور الجميلة الناضحة بتقديس الحب، المعبّرة تعبيرا قويّا عن إيمان نزار بالحديث النّبوي الشريف القائل: «من أحبّ فعفّ ومات، مات شهيدا»، يقول:

«الشّهيدة هي أختي الكبرى وصال، قتلت نفسها بكلّ بساطة وبشاعريّة منقطعة النّظير، لأنّها لم تستطع أن تتزوّج حبيبها... صورة أختي وهي تموت من أجل الحبّ محفورة في لحمي، لا أزال أذكر وجهها الملائكيّ، وقسماتها النّورانية، وابتسامتها الجميلة وهي تموت، كانت في ميتتها أجمل من رابعة العدويّة.. وأروع من كليوباترا المصريّة. حين مشيت في جنازة أختي، وأنا في الخامسة عشرة، كان الحبّ يمشي إلى جانبي في الجنازة، ويشدّ على ذراعي ويبكي».

---

1) نفسه: ص 71

ويقول نزار بشاعريّة جميلة ورمزيّة معبّرة عن تجاوبه مع وصال : «حين زرعوا أختي في التّراب، وعدنا في اليوم الثّاني لنزورها لم نجد القبر، وإنّما وجدنا في مكانه وردة»(1) .

***

لعلّ موت وصال يمثّل مفتاحا مهمّا من مفاتيح شِعر نزار قبّاني، فكيف قتلت أخته نفسها بسبب الحبّ؟ كيف كان الحبّ سلطانا على قلبها يحكم بأمره، خضعت له خانعة طيعة، لقد لبّت نداء الحبّ، استجابت له مضحية بحياتها، ويتساءل نزار عن مدى تأثير استشهاد أخته في شعره وحياته الأدبيّة فيقول: «هل كان موت أختي في سبيل الحبّ أحد العوامل النّفسيّة التي جعلتني أتوفّر لشعر الحبّ بكلّ طاقاتي، وأهبه أجمل كلماتي؟. هل كانت كتاباتي عن الحب تعويضا لما حُرمت منه أختي، وانتقاما من مجتمع يرفض الحب، ويطارده بالفؤوس والبنادق؟. إنّني لا أؤكّد هذا العامل النفسي ولا أنفيه. ولكنّني متأكّد من أنّ مصرع أختي العاشقة كسّر شيئا في داخلي، وترك على سطح بحيرة طفولتي أكثر من دائرة، وأكثر من إشارة استفهام»(1) .

وكثيرا ما يعود نزار إلى ذكر أخته وصال في أجوبته للصحفيين سأله بعضهم السؤال التالي :

---

1) نفسه : ص 72.

ـ تقول : أنا من أسرة تمتهن العشق، وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهادٍ مثيرة سببها العشق، والشهيدة هي أختك الكبرى وصال : ما أثر هذه الحادثة على شعرك ؟.

فأجاب نزار قبّاني بهذا الجواب الدّال على التأثير النّفساني العميق لهذا الحدث في نفسه، قال في كتابه : «لعبت بإتقان وهاهي مفاتيحي»(ص186) : «قبل أن تنتحر أختي لم أكن أعرف أنّني أعيش في مجتمع يمنع الشجرة أن تُزْهِر، والقمر أن يطلع، والنّهد أن يتكوّر، لم أكن أعرف أنّ صوتَ المرأة يمكن أن يكون عورة، وكتاب الشعر يمكن أن يكون فضيحة، وكتابة رسالة عشق يمكن أن توصل إلى حبل المشنقة. بعد مصرع أختي قرّرت أن أنتقِم لها بالشعر، وبدأت بتحطيم كلّ «التّابويات» والخرافات السّائدة، والقناعات التي كانت تعتبر المرأة شريحة لحم».

ويذكر النقاد أنّ ديوان نزار قبّاني «يوميات امرأة لا مبالية» الصادر سنة 1968 قد كُتِب من وحي استشهاد أخته وصال، لذلك بدأ ديوانه بهذه الكلمات :

ثُوري. أحبّك أن تثوري..

ثوري على شرق السبايا.. والتكايا.. والبخور

ثوري على التاريخ، وانتصري على الوهم الكبير

لا ترهبي أحدا، فإنّ الشّمس مقبرةُ النّسور

ثوري على شرقٍ يراك وليمةً فوق السّرير..

والقصيدة الأولى من الديوان رسالة توجهها فتاة إلى رجل، تتّهم فيها الشرق من خلاله بمصادرة أحلام النّساء، وممارسة الحجر على عواطفهنّ، وقتل الرّبيع والأشواق، و«نصنع تاج الشّرف الرّفيع من جماجم النّساء»(1).

ويعجّ ديوان «يوميات امرأة لا مبالية» بالشكوى من المحاصرة، والثّورة، وإرادة كسر «القمقم المسدود من عصور»، والتّمرّد على العادات المزمنة والتّقاليد البالية، هي نداءات موجّهة إلى المرأة «لخلع قفل التّابوت»، تقول هذه المرأة الشرقيّة :

أنا أنثى..

أنا أنثى

نَهَارَ أتَيْتُ للدُّنْيا

وجَدْتُ قَرارَ إعدامي

ولم أر بَابَ محكمتي

ولم أرَ وجْهَ حُكَّامي

---

1) الأعمال الكاملة : ج 1، ص 576.

إنّ قصائد ديوان «امرأة لا مبالية» صرخة مدوية ضدّ الظلم، فيها تطلّع لضوء الشمس، وطموح إلى التّمتّع بالحياة، وخروج من دنيا الحرمان والكبت. وهذه القصائد في الحقيقة تأبين نزار لأخته، وتخليد لها، ودفاع عنها، وتشنيع بالتزّمت والتّعصب والقهر :

أُسائل دومًا نفسي :
لماذا لا يكونُ الحبُّ في الدّنيا ؟
لكلّ النّاس.. كلّ النّاس..
مثل أشعّة الفجر...
لماذا لا يكون الحبُّ مثل الخبز والخمر؟.
ومثلَ الماءِ في النّهر..
ومثلَ الغَيم، والأمطارِ
والأعشاب، والزَّهْرِ..
أليس الحبُّ للإنسانِ
عُمرا داخلَ العُمْرِ ؟..
لماذا لا يكونُ الحبُّ في بلدي ؟
طبيعيّا..
كأيّ زهرة بيضاءَ..

طالعةً من الصخر..

طبيعيا..

كلُقيا الثَّغْرِ بالثغرِ..

ومُنسابا كما شَعري على ظهري ؟ ..

لماذا لا يُحبّ الناسُ.. في لينٍ وفي يُسْرِ؟.

كما الأسماكُ في البحر..

كما الأقمارُ في أفلاكها تجري..

لماذا لايكون الحبُّ في بلدي؟

ضروريّا..

كديوانٍ من الشعر.

يحتوي ديوان « يوميّات امرأة لا مبالية » على ستٍّ وثلاثين قصيدة تُعتبر بيانا شعريّا لقضيّة تحرير المرأة، لذلك لا يعدو نزار قباني الحقيقة حين يؤكّد كُلّ مرّة القول بأنّه يدافع عن المرأة يقول مثلا في كتابه « ماهو الشعر » : « أبحث في كتابتي عن كلّ النّساء المدفونات كأسماك السّردين في كتب عاد وثمود، والمشنوقات على بوّابات المدن العربيّة، وعن الشّفاه التي لا تستطيع أن تتكلّم فأتكلّم عنها، وعن العيون التي لا تستطيع أن تبكي.. فأبكي عنها »(1).

1) انظر الأعمال الكاملة : ج 8، ص 90.

ويقول في أحد استجواباته : «أنا دافعت عن سجن النّساء الكبير، أنا محطّم أقفال هذا السجن، طبعا يوجد آخرون سبقوني في الدّفاع عن قضيّة المرأة ولكن لا يوجد أحد دافع وقاتل بالشّراسة التي قاتلت بها».

وقد خلص نزار قباني للحبّ وللحبّ وحده في المرحلة الأولى من حياته، وبعد استشهاد زوجه بلقيس في بيروت في الأحداث الدّامية التي شهدتها توجّه الشاعر إلى خوض المسائل السياسيّة والالتزام بالدّفاع عن القضايا العربيّة.

إلاّ أنّ نزار يبقى شاعر الحبّ، كما يبقى الصّوت العربي الفذ الذي يشهّر بما تردّى فيه العالم العربي من أوضاع مزمنة.

ومن ديوان «يوميّات امرأة لامبالية» نقرأ على لسان فتاة :

أريدُ.. أريد أن أحيا

بكلّ خليّة منّي

مفاتنَ هذه الدنيا...

بِمخْمل ليلها الواسعْ

وبرد شتائِها اللاذعْ

أُريد.. أُريدُ أن أحيا..

بكل حرارة الواقعْ..

بكلّ حماقة الواقع..

ومن قصيدة أخرى وهي القصيدة 24 :

بلادي تَرْفُض الحبّا

تُصادره كأيّ مخدّرٍ خَطرٍ

تَسُدُّ أمامهُ الدّربا..

تُطارده..

تطارد ذلك الطفل الرقيق الحالِمَ العذبَا

تَقُصّ له جناحيه..

وتملأ قلبه رُعبا..

ويمكن اعتبار «يوميات امرأة لا مبالية» قصيدةً طويلة، تعبّر عن مأساة أخته، و«كأنّ الشاعر كان يراقب كلّ المشاهد التي قادت إلى المأساة بعين حاذقة لا تهملَ أدقّ التفاصيل فهو ورغم أنّه أصغر من الشقيقة المنتحرة يراقب نموّها ونزواتها وحديثها عن تفتّح جسدها واستبداد أبيها الذي قاد حسب اعتقاد الشاعر إلى تلك النّهاية المحزنة»(1) .

ويعلّق الدكتور محيي الدين اللاذقاني الناقد السوري في مجلّة الإذاعة والتلفزيون قائلا : «إن أوراق الشقيقة المنتحرة والتي احتوت مذكراتها وربّما رسائلها لحبيبها قبل الانتحار

1) مجدي كامل: نزار شاعر المرأة: ص 94. من مقالة للدكتور محيي الدين اللاذقاني.

كلّها قد اطّلع عليها نزار فيما بعد، وكانت المعين الدائم لتجربته الشعرية، وربّما كان مع هذه الأوراق رسائل الحبيب نفسه بعد انتحارها لأنّه لم يعلم أنّها انتحرت من أجله. فجيعة نزار في أخته والتي أعلنها بعد كلّ هذا العمر تفسّر لنا تعلّقه الحميم بالمرأة، ودفاعه المستميت عن أنوثتها وتحرّرها»(1).

ومن أجمل قصائد «يوميّات امرأة لا مبالية» القصيدة التاسعة التي تقول :

أحبّ طيور تَشرينِ

تسافر.. حيثما شاءتْ

وتأخذ في حقائبها

بقايا الحقل من لَوْزٍ ومن تين

أنا أيضا..

أحبّ أكونُ مثل طيور تَشرين

أحبّ أضيعُ مثل طيور تَشرين..

فحُلْوٌ أن يضيع المرءُ..

بين الحين والحين..

أريد البحث عن وطنٍ..

---

1) نفسه : ص 96 ـ 97.

جديد.. غيرِ مسكونِ

ورَبٍّ لا يطاردُني.

وأرضٍ لا تعاديني.

أريد أفِرُّ من جلدي..

ومن صوتي.. ومن لغتي

وأشْرُدُ مثل رائحةِ البساتينِ

أريدُ أفرُّ من ظِلّي

وأهربُ من عناويني..

أريدُ أفرّ من شرقِ الخُرافةِ والثعابين..

من الخلفاء.. والأمراء..

من كلّ السلاطين..

أريد أحبُّ.. مثل طيور تشرين ..

أيا شرق المشارق والسكاكين

ومن الشخصيات العائليّة التي أثرت في نزار قبّاني عم والده أبو خليل القباني رجل المسرح، مؤلّفا ومخرجا وكاتبا للسّيناريو ومصّمما للأزياء وملحّنا لكلام المسرحيات وكاتبا للشعر بالعربيّة والفرنسيّة يقول عنه نزار : «حين كانت دمشق لا تعرف من الفنّ المسرحي غير خيمة «قَره كُوز» ولا تعرف

من الأبطال غير أبي زيد الهلالي وعنترة والزّير، كان أبو خليل يترجم لها موليير عن الفرنسية». وقد هاجر أبو خليل من دمشق إلى القاهرة، وفي مصر أمضى بقيّة أيّام حياته.

وأبو خليل القباني هو أحمد بن محمد، ولد سنة 1841 وتوفّي سنة 1902. اشتغل بالأدب والشعر والموسيقى. نظم عدّة موشّحات ولحّنها وأنشأ مسرحا للتمثيل بدمشق عرض فيه روايات غنائيّة من وضعه وتلحينه، اقتبس حوادثها من «ألف ليلة وليلة»، منها «هارون الرّشيد» و«أُنْس الجليس»، وقد أنكر عليه بعض الشيوخ الاشتغال بالتمثيل فشكوه إلى حكومة الآستانة ومنع من الاستمرار فاحترف التجارة بما يسمّى «مال القبّان» وعرف بالقبّاني. ثمّ رحل إلى مصر سنة 1884 ومعه جوقة من الممثّلين والمنشدين، فبدأ بتمثيل «أنس الجليس»، وعلت شهرته وكثر الآخذون عنه، واقتبس بعض مسرحيات كورناي «Corneille»، وسافر إلى الآستانة وأمريكا ثمّ عاد إلى دمشق وكتب مذكّراته. وتوفّي بها. وله قصّتان «لُباب الغرام» و«الأمير محمود نجل شاه العجم».

يقول نزار قبّاني عنه في كتاب «قصّتي مع الشعر» : «وراثيا، في حديقة الأسرة شجرة كبيرة... كبيرة اسمها أبو خليل القباني.. إنّه عمٌّ والدي... قليلون من يعرفون أنّه هزّ مملكة، وهزّ (الباب العالي)(...) أعجوبة كان هذا الرجل تصوّروا إنسانا أراد أن يحوّل خانات دمشق التي كانت تُزْرَبُ فيها الدواب إلى مسارح، ويجعل من دمشق المحافظة التّقيّة الورعة «برودواي ثانية».

تعلّمه

تعلّم نزار قبّاني في الكليّة العلميّة الوطنيّة بدمشق، وقد لعبت دورا رئيسيّا في تشكيله الثّقافي، كان طلبتها من أولاد البورجوازية الدّمشقية الصغيرة، وكانت من بين المدارس التبشيريّة التي تبنّت الثقافة الفرنسيّة فنشأ طلبتها في ظلالها يقول عن هذه الكليّة :

«في هذا المناخ نشأنا نقرأ راسين (Racine) وموليير (Molière) وكورناي (Corneille) وموسيه (Musset) ودوفينيه (De vigny) وهوقو (Hugo) والكسندر ديما (Alexandre Dumas) وبودلير (Baudelaire) وبول فالري (Paul Valery) وأندره موروا(André Maurois) في لُغتهم الأصليّة ونتذوّق الأدب الفرنسي من منابعه(...). هذا التأسيس الفرنسي أعطانا بطاقة دخول إلى الفكر الأوروبي وأتاح لنا أن نجلس في مقصورة من مقاصير الكوميدي فرنساز قبل أن نرى باريس»(1).

ويقول عن اللغة الفرنسية : «إنّ اللغة كإفراز حضاريّ وإنسانيّ ليس لها انتماءات سياسيّة، ولا مصالح بوليسيّة..».

1) كتبنا أسماء الأعلام بالحروف اللاتينية لتسهيل النطق بها.

ومن الشعراء الذين أثّروا في تكوينه الأدبي والشعري الشاعر السوري خليل مرْدم، فقد غرس في نفسه حبّ الشعر في هذه الكليّة. يقول عنه : «إنّه لمن نعمة الله عليّ وعلى شعري معا أنّ مُعلّم الأدب الأوّل الذي تتلمذت عليه كان شاعرا من أرقّ وأعذب شعراء الشام وهو الأستاذ خليل مردم. هذا الرّجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى حين أملى علينا في أوّل درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذّهب :

إنّ التي زَعَمتْ فؤادكَ ملَّها خُلقتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها
مَنَعَتْ تحيّتها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرُها لنا وأقلّها

وتبيانا لقيمة خليل مَرْدَم، هذا الشّاعر الكبير، وتأكيدا لدوره الأدبي والشّعري في الحياة الأدبيّة والفكريّة في عصره في البلاد العربيّة، واعترافا بمكانته بها في تاريخ الفكر والأدب والشعر، وبفضله على الأدباء عامّة والشعر خاصّة نُورد قول نزار قباني فيه وقد سجّله في سيرته الذاتيّة «قصّتي مع الشّعر» : يقول عنه : «استمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشّعر العربي عشر زهرات جديدة، في كلّ درس من دروسه حتّى صارت ذاكرتنا الشّعريّة في نهاية العام بستانا يموج بالأخضر والأصفر والأحمر... من حسن حظّي أنّني كنت من بين التلاميذ الذين تعهّدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشّعريّة وأخذهم معه في نزهاته القمريّة، ودلّهم على الغابات

المسحورة التي يسكن فيها الشّعر. إنّني أدين لخليل مردم بك بهذا المخزون الشعري الرّاقي الذي تركه على طبقات عقلي الباطن. وإذا كان الذّوق الشعري عجينة تتشكّل بما نراه ونسمعه ونقرؤه في طفولتنا، فإنّ خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي، وفي تهيئة الخمائر التي كوّنت خلاياي وأنسجتي الشعريّة».

ويذكر نزار قبّاني شعراء آخرين قد أثّروا في تكوينه منهم أمين نخلة وبشارة الخوري وإلياس أبي شبكة وصلاح لبْكي وسعيد عقل ويوسف غصوّب وميشال طراد.

نزار ووالداه

في قصيدة «الوضوء بماء العشق والياسمين» المنشورة في ديوان «الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق». يثير نزار قبّاني ذكرياته في مدينة دمشق، ويذكر بعض محطّات من سيرته الذاتيّة. ويمكن أن نميّز محاور في هذه القصيدة، وهي الأمّ والأب والمعالم والمواقع الدمشقيّة والمرأة الأولى التي علّمت الشاعر الحبّ.

فقد ولدته أمّه ذات يوم في شهر آذار ـ مارس، من سنة 1923، ورمته القابلة في طست تحت السرير، وقبضت من أبيه ليرة ذهبيّة، وختنه حلاّق دمشقي كما أفادنا، يقول عن أمّه : «إنّ أمّي امرأة طيّبة جدّا، وتُحبّني جدّا»، ويتذكّر أنّها كانت تعدّ له لفيفا من الزيت والزعتر كلمجة في شكل عروسة، وتقدّم له في فطور الصّباح مُربّى السّفرجل وشراب التّوت، يقول : «وبعد مُربّى السّفرجل التي كانت تصنعه بيدها، لم أعد مُتحمّسا لإفطار الصباح، وبعد شراب التوت التي كانت تعصره لم يعد يُسكرني أيّ نبيذ».

كانت أمّه عندما كان يعمل في السّفارة السّوريّة بلندن وهو شاب تبعث إليه في مطلع الرّبيع في كلّ رسالة حزمة

طَرْخُون. يقول عن هذه المادّة : «الطّرخون لغة تتكلّمها بساتين الشام فقط وهو عُشبتنا المقدّسة وبلاغتنا المعطرة».

وقد تأثّر الشاعر بوالدته، بتقواها وعبادتها وصلواتها، يقول : «جئتكم(...) من سجّادة أمّي التي علّمتني أوّل الطّريق إلى اللّه». وقد ساعد الجوّ الديني بدمشق خاصّة مقامَ القطب محيي الدّين بن عربي دفين جبل قاسيون على إضفاء مسحة صوفية على كثير من قصائد نزار الغزليّة والغراميّة.

وعندما توفّيت أمّه رثاها بكلمات تعبّر عن حزنه لفقدها، فقد جعل حزنه يكتسي بعدا شمل الطبيعة، شمل زهور الياسمين وأنهار الشام، يقول في قصيدة نشرها في ديوان «تزوّجتك أيّتها الحريّة» :

رحمة اللّه على أمّي..

فقد كانت تحبّ الشام، والماءَ

وزَهْرَ الياسمينْ

ثمّ لمّا رحَلَتْ

بكت الشامُ عليها

واستقالت بعدها

أنهار الشام جميعا

وشتُولُ الياسمين

وحدّثنا نزار قباني عن أمّه مرّة أخرى في ديوان «كلُّ عام وأنتِ حبيبتي». يقول فيه: «إنّ بيت أمّي كان معقلاً للحركة الوطنيّة في الشام عام 1935، وفي باحة دارنا الفسيحة كان يلتقي قادة الحركة الوطنيّة السّوريّة بالجماهير.. ومنها كانت تنطلق المسيرات والتظاهرات ضدّ الانتداب الفرنسي»، ويقول عن أثر موتِ أمّه في نفسه:

بموت أمّي..
يَسْقط آخرُ قميص صوفٍ أغطّي به جسدي
آخر قميص حنانْ..
آخرُ مظِلّة مطر
وفي الشتاء القادم..
ستجدُونني أتجوّل في الشوارِع عاريًا..

***

كلُّ النّساء اللّواتي عرفتُهنَّ
أحببنني وهنّ صاحياتْ..
وحدها أمّي..
أحبّتْني وهي سكرى..

فالحبّ الحقيقيّ هو أن تسكر..

ولا تعرفُ لماذا تَسكرْ..

وختم هذا النص بقوله : «كلّما سألوها عن شعري، كانت تجيب : ملائكة الأرض والسّماء ترضَى عليه، طبعا أمّي ليست ناقدة شعر موضوعيّة، ولكنّها عاشقة، ولا موضوعيّة في العشق. فيا أمّي، يا حبيبتي، يا فائزة ! قولي للملائكة الذين كلّفتهم بحراستي خمسين عاما أن لا يتركوني لأنّني أخاف أن أنام وحدي».

وقد ضمّن نزار قبّاني ديوان «الرّسم بالكلمات» خمس رسائل إلى أمّه. فهو يلجأ لمخاطبتها ليبثّها همومه ومشاغله، بعث هذه الرسائل إليها بعد عامين من غربته في مدريد ضمّنها حنينه إلى فلّ دمشق ودورها ومآذنها، بدأ الرسالة الأولى بقوله :

صباح الخير.. يا حُلوه..

صباح الخير.. يا قِدّيستي الحلوهْ..

مضى عامان يا أمّي،

على الولد الذي أبحرْ

برحلته الخرافيه..

وختم الرسالة الثانية ذاكرا أنّه يستحيل أن يجد امرأة في مثل عطفها وحنانها وحبّها وعنايتها به. إذ أنّ الأمّ كائن ملائكيّ لا مثيل له في الإخلاص والتّضحية والإيثار، يقول :

طُفت العالم الأصفر..

ولم أعثر..

على امرأة تُمشّط شعريَ الأشقر

وتحمل في حقيبتها إليّ عرائس السّكّر

وتكسوني إذا أعرى

وتنشُلني إذا أعثرْ

أيا أمّي.. أنا الولدُ الذي أبحرْ..

ولا زالتْ بخاطره

تَعيشُ عروسةُ السّكّرْ

أمّا الرسالة الثالثة فيثير فيها نزار حنينه إلى منزله، ويتذكّر والده وكيف كان يَرعى شجرة الفلّ :

صباح الخير من مدريدَ..

ما أخبارُها الفُلّهْ ؟

بها أوصيكِ يا أمّاهُ

تلك الطَّفلة الطِّفلهْ..

فقد كانت أحبَّ حبيبة لأبي.

يُدلّلها كطفلته..

ويدعُوها إلى فنجان قهوته..

ويسقيها، ويُطعمُها

ويغمرها برحمته..

ومات أبي..

ومازالت تعيش بحُلم عودته

وتبحثُ عنه في أرجاء غُرفته..

وتسأل عن عباءته..

وتسأل عن جريدته..

وتسأل حين يأتي الصّيفُ عن فيروز عينيه

أمّا الرسالةُ الشعريّة الرابعة فبدأها بقوله :

سلاماتٌ.. سلاماتٌ..

إلى بيتٍ سقانا الحبَّ والرّحمه..

ضمّنها أشواقه إلى ليلِ دمشق وفُلّها ودورها ومآذنها. أمّا الرسالة الخامسة فقد أثار فيها ذكريات عن والده يقول فيها :

أين أبي وعيناه؟

وأينَ حريرُ نظرته، وأين عبيرُ قهوته؟

سقى الرحمانُ مثواه..

ويذكر نزار والده في قصيدة «الوضوء بماء العشق والياسمين» بقوله :

أفتحُ جواريرَ الذّاكرة
واحداً واحداً
أتذكّرُ أبي
خارجاً من معمله في زُقاق مُعاويهْ
كأنّه غمامةٌ من عطر الفانيليا

ويذكر نزار والده مرّة أخرى في قصيدة «كتابات على جدران المنفى» في ديوان «تزوّجتكِ أيّتها الحرية»، يذكره مع أمّه بعينيه الزرقاوين، يقول :

ياسيّدتي
ماذا أفعل لو جاءتْني أمّي في الأحلامْ؟
ماذا أفعل لوناداني فلٌّ دمشق
وعاتبني تُفّاحُ الشّام ؟
ماذا أفعل لوعاودني طيفُ أبي؟
فالتجأ القلبُ إلى عينيه الزرقاوين كسربِ حمامْ؟

ولقد خصّص نزار قباني قصيدةً لأبيه تدلُّ على برّه وتأثره به، فهو يذكرُ بحبّ وحنين أشياء والده : جريدته، تبغه،

فنجانه، ونظارتيه. خاصّة أسماره وعطفه، فالحبّ البنوي للأبّ يتدفّق من خلال قصيدة «أبي» المنشورة في ديوان «قصائد» :

أماتَ أبوكَ؟

ضلالٌ .. أنا لا يموتُ أبي

ففي البيت منهُ..

روائحُ ربٍّ، وذكرى نبي

هنا ركنُه.. تلك أشياؤهُ

تفتّقُ عن ألفِ غصنٍ صبي

جريدتُهُ.. تبغُهُ.. مُتّكاهُ

كأنّ أبي، بعدُ، لم يذهبِ..

وصحنُ الرمادِ.. وفنجانهُ

على حالِه، بعدُ، لم يُشرَبِ

ونظّارتاهُ.. أيسلو الزّجاجُ

عيونا، أشفَّ من المغربِ

بقاياهُ، في الحُجُرات الفساحِ

بقايا النّسور على الملعبِ

أجولُ الزوايا عليه، فحيثُ

أمـــرٌ.. أمـــرُّ علـــى مُعْشـــبِ

أشـــدُّ يديـــهِ.. أميـــلُ عليـــه

أُصلّـــي علـــى صـــدره المتعـــبِ

أبي .. لم يزل بيننا، والحديـــثُ

حديثُ الكؤوس علـــى المشـــربِ

يسامرُنـــا، فالدوالـــي الحُبـــالـــى

توَالـــدُ مـــن ثغـــره الطيّـــب..

أبـــي، خبـــراً كـــان مـــن جنّـــةٍ

ومعنًـــى من الأرحـــب الأرحـــبِ

وعينـــا أبـــي.. ملجـــأ للنّجـــومِ

فهل يذكرُ الشرقُ عينـــي أبـــي؟

بذاكـــرةِ الصّيـــف مـــن والـــدي

كـــرومٌ.. وذاكـــرةِ الكوكـــبِ

أبي .. يا أبي.. إنّ تاريـــخَ طيـــبٍ

وراءكَ يمشـــي، فـــلا تعتـــبِ

على اسمِكَ نمضي.. فمن طيّـــبٍ

شهـــيٍّ المجانـــي إلـــى أطيـــبِ

حملتُكَ في صحو عينيَّ حتّى

تهيّأ للنّاس أنّي أبي..

أشيلُكَ حتّى بنبرة صوتي

فكيف ذهبتَ.. ولا زلت بي؟

إذا فُلَّةُ الدّار أعطت لدينا

ففي البيت ألفُ فمٍ مُذْهَبِ

فتحنا لتمّوزَ أبوابَنا

ففي الصّيف، لابُدَّ، يأتي أبي

****



نزار في سن الخامسة



نزار في سن الخامسة عشرة من عمره

نزار و بلقيس

أعلن نزار قبّاني حُبّه لامرأة قد أحبّها وتزوّجها فساعدته على الإبداع، ووقفت بجانبه ليشهدَ انطلاقته الكبرى في عالم الشعر. هذه "مرأة هي بلقيس الرّاوي التي تغنّى بها في عديد القصائد، وحين ارتحلت عنه ذات يومٍ إلى العالم العلوي، قتلت في حادث انفجار السّفارة العراقيّة ببيروت سنة 1982، بكاها أحر بكاء في شعره، فجع بها، كان ارتحالها عنه فجيعة كبرى في حياته.

لقد تحدّث عنها في كثير من حواراته، كما تحدّثت عنه قبل استشهادها في العديد من حواراتها مع الصحفيين.

يصرّح نزار قبّاني أنّه كتب شعرا بعد زواجه أكثر ممّا كتب قبله، يقول عن سبب إشعاعه الكبير في العالم العربي في عالم الشعر والأدب : « السّبب هو إحساس الطمأنينة الذي تسرّب إلى أعماقي، الفوضى لايُمكن أن تصنع فنّا، والتسكّع على طرقات العالم كذلك لا يمكن أن يصنع فنًّا وربّما تصلح البوهيمية لمرحلة من مراحل العمر، أن يبحر الفنّان على مراكب متعدّدة الجنسيات، ونساء مختلفات الشخصيّة ولكن في مرحلة لاحقة يحقّق المرفأ الواحد سعادةً أكثر»(1).

---

1) مجدي كامل : نزار شاعر المرأة وأحلى ما كتب فيها، دار الوليد للدراسات والنشر والترجمة، دمشق 1994، ص 101.

كان هذا الشاعر تعبًا من عدم الاستقرار، من انتظار امرأة تبعث السّعادة في حياته، وتحتضن إبداعه، امرأة تجعله يستقرّ نهائيّا في مرفإ جميل، وحين التقى بلقيس كان الحبّ، وكانت كما صورّها في قصيدته الرّثائيّة، كنزاً خرافيّا، وغابة خيزران، كانت عنده أجمل الكلمات في تاريخ بابل، وأطول النخلات في أرض العراق، صورّها أعظم الملكات، تجسّد في نظره كلّ العصور السُّومريّة ، عصفورة أحلى العصافير في العالم، هي عنده الصديقة والرّفيقة والرّقيقة مثل زهر الأقحوان، والحبيبة، وبشراه الوحيدة في الحياة، هي في عينيه الجزيرة والقمر والوطن.

يقول عن لقائه إيّاها وحبّه لها، وعشقه لعينيها وشعرها الطويل : «عندما قابلتها في لقاءات قليلة لدى بعض الأصدقاء في بغداد اكتشفتُ ذلك الحوار بيننا، لا بدّ أن يكون بين الطّرفين حوار، لا بدّ أن تكون زوجتي لا تتناقض مع شعري، كثير من الزيجات الفنية تسقط لأنّ المرأة لا تهتمّ بفنّ زوجها ، وأنا شاعر، وقد تزوّجتني بلقيس وقبلت كلّ ذيول الشاعر وملحقاته، إنّ بلقيس زوجتي أحببتها دون سواها لأنّها تعتبر فنّي جزءا منها وتعتبر نجاحي هو نجاحها، ولا تعتبر الأوراق التي أكتبها عنها مزاحمة لها، فهي لا تحاول اغتيال حريّتي ولا شعري لتبقى هي»(1).

1) نفسه : ص 102 ـ 103.

ويقول : «في لحظة أسرع من البرق شعرت أنّني وجدتُ نصفي الثاني ، نصفي الضّائع فتزوّجتها»(1) .

وماذا قالت بلقيس عن نزار قبّاني وزواجهما ؟ عن عشقها له واختيارها إيّاه زوجا حبيبا ؟ : قالت «تزوّجته لأنّني أحبّه، والزواج في رأيي لا يقتل الحبًّ أبدا. . . الحبّ حين يكون نزوة طارئة فإنّه سينتهي دون شكّ. أمّا الحبّ عندما يكون عميقا وحقيقيّا فإنّ مرور الزمن عليه سيمنحه قوّة أكثر، لقد ازداد حبّي لنزار بعد الزواج»(2) .

ترى بلقيس أنّ الزواج المبنيّ المشترك والاختيار الواعي يدوم ويبقى ويخلد، وتصور نزار «كتلةً متحرّكة حيّة من العطاء»، وتقول : «إذا كان فيه عيب فهو أنّه يكرّس معظم وقته للكتاب مدفوعا بإحساسه بالمسؤوليّة تجاه قرّائه وهو كما أرى عيب رائع» .

التقت بلقيس بنزار أوّل مرّة سنة 1962 في سامرّاء، اجتمعت به في دعوة غداء، وحين رآها أعجبته وراقت في عينيه، ونفذ حبّها إلى قلبه، فقال لها : يا بلقيس ! هل تقبلينني زوجا ؟ وعندها شعرت بحبّ حارق له، تقول عن علاقتها به : «علاقتي بنزار علاقة صداقة قبل أن تكون علاقة زوج

1) نفسه : ص 109.

2) صحيفة الدستور 18ـ 01ـ 1982.

بزوجة(...) السائد في علاقتنا الاحترام المتبادل وديمقراطيّة في الرّأي، فهو لا يُلزمني برأيه كما أنّي لا ألزمه برأيي».

وعبّرت عن حبّها له بهذه الكلمات الرقيقة: «نزار مملكتي الوحيدة وشاعري الوحيد، أنا أحبّ دائما أن أكون مستمعة لشعر نزار، وأجمل الأوقات لديّ أن أسمع نزار وهو ينشد شعره أمام الجمهور وعندها أحلّق في أجواء ممتعة ثمّ أنتبه إلى حقيقة رائعة صلبة وهي أنّني زوجة هذا الشّاعر المدهش، وأعيش معه في بيت واحد، ولنا أطفال هم نتاج حبّنا المشترك(1).

وتقول بلقيس في استجواب آخر كاشفة عن سر من أسرارها الدفينة: «قبل الزواج كنت أحب شعره، أعشقه، أحفظه كلّه، بعد الزواج أحببت نفسه وعشقت الطفل فيه، صدق الطفولة وبساطتها وطبيعتها وغضبها أيضا، وعندما يغضب نزار يصرخ كطفل، ويرضى ويقنع بكلمة طيّبة كطفل أيضا. وهو صادق في حديثه، وفي كلّ أبيات شعره، لأنّه يفتعل الحديث ولا الكتابة ربّما هذا سرّ نجاحه»(2).

---

1) ديب علي حسن: نزار قبّاني، رحلة الشعر والحياة، نشر المنارة، بيروت 2000. ص120.

2) مجدي كامل: نزار شاعر المرأة، ص 110.

لقد عبّر نزار عن حبّه لبلقيس قبل وفاتها في كثير من القصائد، منها هذه الأشعار :

شكراً لحبّك..

فهو معجزتي الأخيرةُ..

بعدما ولّى زمانُ المعجزاتِ..

شكرا لحبّكِ..

فهو علّمني القراءة، والكتابةَ،

وهو زوّدني بأروع مفرداتي..

وهو الذي شَطب النساء جميعهنّ.. بلحظة

واغتال أجمل ذكرياتي..

شكراً من الأعماقِ..

يا من جئتِ من كُتُب العبادةِ والصّلاةِ..

شكرا لخصركِ، كيف جاء.. بحجم أحلامي، وحجم تصوّراتي

ولوجهكِ المندسّ كالعصفورِ،

بين دفاتري ومُذكّراتي..

شكرا لأنّكِ تسكنِين قصائدي..

شكرا..

لأنّك تجلسين على جميع أصابعي
شكرا لأنّك في حياتي
شكرا لحبّك..
فهو أعطاني البشارة قبل كلّ المؤمنينْ
واختارني ملكًا..
وتوّجني..
وعمّدني بماء الياسمينْ
شكرًا لحبّك..
فهو أكرمني، وأدّبني، وعلّمني علوم الأولينْ
واختصّني، بسعادة الفردوس، دون العالمين
شكرا..
لأيّام التسكّع تحت أقواسِ الغمام، وماء تشرينَ الحزينْ
ولكلّ ساعاتِ الضّلال، وكلّ ساعاتِ اليقينْ

تتواصل قصيدة نزار الغزليّة في بلقيس معبّرة عن وفائه لها، وإخلاصه في حبّه وامتنانه لها لتوفيرها السّعادة له في بيته، لقد دعته حرًّا مع قلمه وأوراقه، دعته منطلقا مع خياله وسبحاته في بحر الرّسم بالكلمات، يقول :

شكراً لحبّك..

فهو من أغلى وأوفى الأصدقاءْ

وهو الذي يبكي على صدري..

إذا بكت السّماءْ

شكرا لحبّك فهو مروحةٌ..

وطاووس.. ونعناعٌ.. وماءْ

وغمامةٌ ورديّة مرّت مُصادفة بخطّ الاستواءْ..

وهو المفاجأةُ التي قد حار فيها الأنبياءْ..

شكرا لشَعرك.. شاغلِ الدّنيا..

وسارقِ كلّ غابات النخيلْ

شكراً لكلّ دقيقة..

سمحتْ بها عيناك في العُمر البخيلْ

شكرا لساعات التّهوّر، والتّحدّي،

واقتطاف المستحيلْ..

شكرا على سنوات حُبّكِ كلِّها..

بخريفها، وشتائها

وبغيمها، وبصحوها

وتناقضات سمائها..

شكرا على زمن البكا، ومواسمِ السّهر الطويل

شكرا على الحزن الجميلْ..

شكرا على الحزن الجميلْ.

كان بعض الصحفيين يضايقون بلقيس بنوع من الأسئلة الحرجة مثل هذه الأسئلة :

- ألا يُسبّب لك نزار أيّ مضايقات خاصّة أنّه يُشاع أنّ للشّاعر نزوات وسلوكا قد يكون مختلفا عن سلوك الإنسان العادي؟

- كيف تتعاملين مع نزار حين يغادر البيت خاصّة وأنّ له الكثير من المعجبات؟

- هل أنت راضية عمّا يكتبه زوجك؟

- هل تختلفين مع زوجك أحيانا؟

- هل أنت تغارين على نزار؟

وكانت بلقيس تتخلّص بذكاء من هذه الأسئلة المثيرة بل تذكر بعض الأحداث التي استفزّتها وأثارت غيْرتها الشديدة، وغضبها حتّى تخاصمت معه تقول :

«في إحدى المرّات كنّا نُصيّف في بحمدون في لبنان، وكان الوقت ليلا، فأراد نزار أن يمشي على قدميه في تلك المنطقة، فإذا إحدى المعجبات به تطارده، وتقدّم له وردة حمراء، وعندئذ شعرتُ بالغيرة لأوّل مرّة، فحافظت على هدوء أعصابي آنذاك، غير أنّي تخاصمت معه فيما بعد.. وبصراحة، أنا أغار قليلا عندما شهدت نزار مع الفتيات، ولكنّي أغار أكثر عندما يتحدّث إلى فتاة عراقيّة(...) نزار يحبّ العراق كثيرا، يحبّه حبًّا فطريًا عظيما، وأخشى أن يدفعه هذا الحبّ لأن يقع في حبّ واحدة غيري من العراقيّات»(1).

وكما كان بعض الصّحفيين يضايقون بلقيس بأسئلتهم الحرجة، كانوا يفعلون نفس الشيء مع نزار، يلقون عليه أسئلة مثيرة، منها أنّ جرأته في الشعر الغزليّ قد قلّت مشيرين بذلك إلى الصّور الجنسيّة التي كان قد ملأ بها شعره خاصّة منها وصف أعضاء المرأة ممّا جعله يلقّب بشاعر الخدود والنهود والقدود فكان جوابُ نزار نافيا ذلك إطلاقا، قال: «لينظروا ديواني القادم، لقد نظمني الزواج، وساعدني ذلك على أن تكون سنة زواجي الأولى أكثر صبا.. فأنا أرى أنّ الشعر يقوم على النظام.. ولا أؤمن بالشّعر القائم على الفوضى والتّسكّع.. لا بدّ للشاعر أن يتوفّر له مناخ منظم.. ومادامت السيدة بلقيس تريحني فالشعر في تقدّم»(2).

1) ديب علي حسن: نزار قبّاني، صلة الشعر والحياة، ص 119.

2) مجدي كامل: نزار شاعر المرأة، ص 110.

فأجاب : لقد كتبتُ شعرا بعد زواجي أكثر ممّا كتبتُ قبل الزواج.

رثاء بلقيس

خصّ نزار قبّاني زوجه بلقيس الراوي بقصيدة طويلة، رثاها بها حين فارقت الحياة شهيدة في حادث انفجار السفارة العراقيّة ببيروت سنة 1981، بكاها بأحر العواطف، كانت زوجه وصديقته وحبيبته والمرفأ الذي أحسّ فيه بالرّاحة والاطمئنان النفسي ممّا ساعده على الكتابة والتأليف وجعله يشعّ بأشعاره الجميلة عبر العالم العربي.

رثى نزار قباني زوجه بمرثية بكاها فيها بحرارة واحتراق، عدّد فيها خصالها وأياديها البيضاء على حياته. لم تخضع هذه المرثية إلى قوانين الرثاء في الأدب العربي مثل الاعتبار بالموت والتفكير في شأن الوجود والتأمّل في الحياة ومصير الناس وضرب الحكم والأمثال والدعاء الصالح للمرثيّ بأن يتغمّده اللّه برحمته ورضوانه ويدخله فراديس جنانه، بل نرى نزار قباني إضافة إلى ذكر محاسن بلقيس، ينفجر ضدّ من تسبّب في مصرعها، وما آل إليه الوضع إذاك ببيروت من حرب أهليّة قاسية وقاتلة، فيندّد بالعنف الأعمى الذي لا يميّز بين الأخضر واليابس، يقضي على كلّ أمل، ويغتال البراءة والطفولة وكلّ ما في الوجود من خير وصلاح وطهارة.

وتكشف مرثية نزار قباني لزوجه بلقيس الراوي عن الجرح الذي لا يلتئم. هذه المرثية نفثة حريق صادرة من قلب موتور في قالب صيغ تعبّر عن التياع شديد. فماذا تمثّل بلقيس في عيني نزار ؟ إنّها عنده أجمل امرأة في الوجود، وأعزّ كائن لديه، كانت الكبرياء والأناقة والجمال :

بلقيس..

كانت أجمل الملكات في تاريخ بابلْ

بلقيس..

كانت أطول النخلات في أرض العراقْ

كانت إذا تمشي..

تُرافقُها طَواويس..

وتتبعها أيائلْ..

وهي الأصالة والنخوة والعزّة :

يا أعظم الملكات..

يا امرأة تجسّد كلّ أمجادِ العصُور السُّومريهْ

ويقول بحيرة وعذاب :

هل تعرفون حبيبتي بلقيسَ ؟

فهي أهمُّ ما كتبوه في كتب الغرامْ

كانت مزيجا رائعا

بين القطيفه والرّخامْ..

كان البنفسج بين عينيها

ينَام ولا ينامْ..

هكذا يتكلّم نزار عن بلقيس بضمير الغائب، وبالزّمن الماضي. صوّرها صورة ضمّنها في إطار كوني، تاريخيّ، رمزي، حضاري، فهي بلقيسُ سليلة الحضارة البابليّة، وهي عنوان الثراء والرّخاء، تجسّد كلّ أمجاد العصور السُّومرية.

ثمّ يُخاطبها مباشرة ويعيد إسمها في المرثية عشرات المرّات ممّا يعبّر عن تفجّع الشاعر، وشدّة جزعه ولوعته وعذابه بموت حبيبته :

بلقيس..

يا وجعي..

ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأناملْ

هل يا تُرى ..

من بعدِ شَعرك سوف ترتفع السنابل؟

يا نَيْنوَى الخضراء..

يا غجْرِيتي الشقراء..

يا أمواج دجلة..

تلبس في الرّبيع بِساقها

أحلى الخلاخلْ..

وتنفجر عاطفة الشاعر الملتاع فتنثال الدّموع، ويتعدّد حرف النّداء معبّرا عن مأساته لفقده أعزّ كائن لديه ؛ بل بفقده كائنا مقدّسا ملائكيّا :

بلقيس يا عصفورتي الأحلى..

ويا أيقُونتي الأغلى

ويا دمعًا تناثر فوق خدٍّ المجْدَليهْ

يعبّر نزار قبّاني عن شوقه اللافح وشوق أبنائها، الشديد وشوق البيت الصغير إليها فيسترجع الشاعر مع الأولاد حركاتها وما تعوّدوا عليه منها من عادات وأحوال، وهم لم يكونوا رأوا منها إلاّ السّعادة القصوى والبهجة العارمة والفرحة الدائمة ؛ يتوقّع الأولاد الصغار قدومها بين لحظة وأخرى :

بلقيسُ..

مشتاقون.. مشتاقون.. مشتاقون..

والبيتُ الصغير..

يُسائِل عن أميرته المعطّرة الذيولْ

(...) والأولادُ لا يدرون ما يجري..

ولا أدري أنا.. ماذا أقولْ؟

هل تقرعين الباب بعدَ دقائقٍ ؟

هل تخلعين المعطف الشتَويَّ؟

هل تأتين باسمة..

وناضرة..

ومشرقة بأزهار الحقول؟

ويعبّر تهاطل الأسئلة على قلم الشاعر عن شدّة حيرته، فهو يتخيّل بلقيس بحركاتها الصغيرة والرّشيقة، وما يزيد الشاعر هلعًا وجزعا تذكّره الأجواء الحميمة التي كان يعيشها معها، والسعادة الضافية التي مكّنته منها، فكلّ شيء معه الآن يبكيها : الزّروع الخضراء، والمرايا، والسّتائر، وحتّى سجائرها :

بلقيسُ..

إنّ زروعك الخضراء..

مازالت على الحيطان باكيةً ..

ووجهك لم يزل متنقّلا..

بين المرايا والسّتائرْ

حتّى سيجارتكِ التي أشعلتها..

لم تنطفئ..

ودخانُها..

مازال يرفض أن يُسافرْ

بل إنّ الوجود كلّه والكائنات جميعا تبكيها :

بلقيسُ..

يا بلقيسُ..

يا يا بلقيسُ

كلّ غمامةٍ تبكي عليك..

فمن تُرى يبكي عليّا..

هكذا، إنّ كلّ أشياء بلقيس التي خلّفتها في البيت تنكأ الجراح، وتثير الأوجاع فيبيت الشاعر في أسى وحيرة :

بلقيسُ..

تذبحني التفاصيل الصغيرة في علاقتنا..

وتجلدني الدقائق والثواني..

فلكلّ دبوس صغير.. قصّةٌ

ولكلّ عقدٍ من عقودك قصتان

حتّى ملاقطُ شعرك الذهبي..

تغمرني كعاداتها بأمطار الحنانِ

ويعرّش الصوت العراقيُّ الجميلُ..

على الستائر..

والمقاعد..

والأواني..

ومن المرايا تطلعينَ...

من الخواتم تطلعين..

من القصيدة تطلعين...

من الشموعِ..

من الكؤوس..

من النبيذ الأرجواني..

بلقيسُ.. يا بلقيسُ..

لو تدرين ما وجعُ المكانِ..

في كلّ ركنٍ.. أنت حائمةٌ كعصفورٍ..

وعابقةٌ كغابة بيلسان..

فهناك.. كنتِ تدخّنينَ..

هناك.. كنت تطالعين..

هناك.. كنت كنخلة تتمشّطينَ..

وتدخُلين على الضيوف..

كأنّكِ السيف اليماني..

بلقيسُ..

أين زجاجة «الغيرلان»؟

والولاعة الزرقاءُ..

أين سيجارةُ الـ«كَنْتِ» التي ما فارقت شفتيكِ ؟

أين «الهاشمي» مغنياً.. فوق القوام المهرجان.. ؟

تتذكر الأمشاطُ ماضيها..

فيكرجُ دمعها..

هل يا ترى الأمشاطُ من أشواقها أيضاً تعاني؟..

بلقيسُ، صعبٌ أن أهاجر من دمي..

وأنا المحاصر بين ألسنة اللهيب..

وبين ألسنة الدخان...

ويعبّر نزار قبّاني عن أوجاعه مباشرة :

الحزْنُ يا بلقيس.. يعْصِر مُهْجتي كالبرتقاله..

(...) السّيفُ يدخُل لحم خاصِرتي

وخاصرةَ العباره..

ويعبّر عن حالة اليتم التي صار فيها الأولاد، وحالة الضّياع الذي بات فيه الشاعر بارتحال بلقيس عنهم :

بلقيسُ .. كيف رحلتِ صامتةً،

ولم تَضعي يديك على يديَّا ؟

بلقيسُ..

كيف تركتنا في الريح..

نَرجِفُ مثل أوراق الشجرْ ؟

وتركتِنا ـ نحنُ الثلاثةَ ـ ضائعين كريشةٍ تحت المطر..

أتُراكِ ما فكّرتِ بي ؟

وأنا الذي يحتاج حبّكِ.. مثل زينبَ أو عُمر

وهكذا ضاقت الحياة بالشاعر بارتحال الصديقة والرفيقة الرقيقة عنه :

بلقيسُ ..

يا كنزاً خُرافيّا..

ويا رُمحا عراقيا..

وغابة خيزُران..

(...) بلقيسُ..

أيّتها الصديقة.. والرفيقة.. والرقيقة.. مثل زهرةِ أقّحوانْ..

ضاقت بنا بيروتُ... ضاق البحرُ..

ضاق بنا المكانْ..

بلقيسُ : ما أنتِ التي تتكرّرين..

فما لبلقيس إثنتان..

كيف لا تضيق بنزار الحياة وكانت بلقيس بشراه فيها، وكلّ شيء عنده :

بلقيسُ، أنتِ بشارتي الكبرى، فمن سرق البشاره ؟

(...) أنتِ الجزيرةُ والمناره

(...) يا صفصافةً أرخت ضفائرها عليَّ ..

ويا زرافةَ كبرياءْ..

(...) بلقيس كيف أخذت أيّامي.. وأحلامي..

وألغيتِ الحدائق والفُصول..

يا زوجتي .. وحبيبتي .. وقصيدتي.. وضياء عينِي..

قد كنتِ عُصفوري الجميل..

فكيف هربتِ يا بلقيسُ منّي؟

ويختم نزار قبّاني مرثيته بهذا المقطع الثلاثين، ففيه دعاء وتغزّل، فهل هذه القصيدة مرثية أم غزليّة؟

نامي بحفظ اللّه.. أيّتها الجميلهْ

فالشّعر بعدكِ مُستحيلٌ..

والأنوثة مُستحيلهْ

ستظلُّ أجيالٌ من الأطفال..

تسأل عن ضفائرك الطويله..

وتظلُّ أجيالٌ من العُشّاق..

تقرأ عنكِ.. أيّتها المعلّمة الأصيله..

وسيعرفُ الأعرابُ يومًا.. أنّهم قتلوا الرسوله..

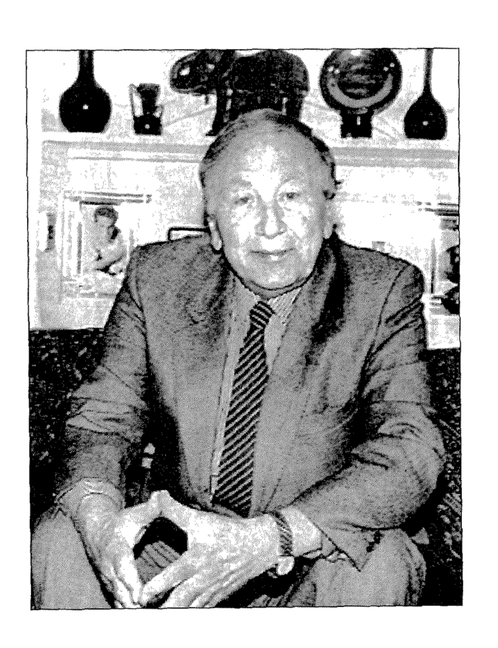
قتلوا الرسولهْ..

ق.. ت.. ل.. و.. ا

الـ.. ر.. س.. و.. ل..ه

والقصيدة ممضاة في بيروت 1981/12/15.

نزار قباني ؛ شاعر الغزل والأغاني



نزار: شاعر التّفاصيل الصّغيرة لدى المرأة

سأل صحفي نزار هذا السؤال : أنت شاعر التفاصيل الصغيرة (منافض السجائر، والستائر، والجرائد، وأدوات الزينة، والأزياء، والعطور، واللوحات) كيف دخلت هذه التّفاصيل إلى شعرك؟ أتعتبرها اكسسوارا في عدتك الشعرية أم أنّها في شعرك وقوامه(1) ؟

ولقد صدق الصحفي في سؤاله، فإنّ من يقرأ دواوين نزار قبّاني خاصّة «قالت لي السمراء» و«طفولة نهد» و«سامبا» و«أنتِ لي» و«قصائد» وهي الدواوين الخمسة الأولى التي نشرها منذ سنة 1944 إلى نهاية الحرب العالميّة الثانية سنة 1948، أي مدى أربع سنوات، يلاحظ اهتمام نزار بأشياء المرأة في قصائد عديدة، وهذه النزعة قد اختفت أو تكاد تختفي في سائر دواوينه التي أصدرها من بعد، ولقد ألصقت الدواوين الخمسة الأولى صفة بنزار قبّاني وهي أنّه شاعر الدنتلا وأحمر الشفاه. فهو يهتمّ بلباس الحبيبة مثلما في قصائد «مذعورة الفستان» و«ثوب النوم الوردي» و«القميص الأبيض» و«رافعة النّهد»

1) نزار قباني : لعبت بإتقان وهذه مفاتيحي، منشورات نزار قباني، بيروت 1990، ص 543.

و«إلى وشاح أحمر» و«المايوه الأزرق» و«الجورب المقطوع»، ونجد عناوين قصائد أخرى تتضمّن أشياء المرأة الحبيبة مثل «خاتم الخطبة» و«القُرط الطويل» و«الصّليب الذهبي» و«مانيكور» و«أزرار» و«كريستيان ديور» و«رباط العنق الأخضر»، فكلّ هذه القصائد تبيّن شغف الشاعر بحسن ذوق المرأة في لباسها واختيارها ما تتزيّن به، وأصبحت هذه الأشياء التي مجّدها الشاعر ترمز إلى فتنة الحبيبة وإغرائها وقد كساها من عاطفته وإحساسه حتّى صارت موضع حبّه وعشقه ووجده. أصبحت المرأةَ تُختزل في شيء من أشيائها الصغيرة الجذّابة كالقرط أو الخاتم أو نوع المانيكور الذي تختاره أو أحمر الشفاه الذي يحلّي شفتيها.

يقول نزار قبّاني عن أحمر الشفاه العاشق الولهان بالشّفتين في ديوان «أنت لي» :

كم وشوش.. الحقيبة السّوداء.. عن جواهْ
وكم روى.. للمُشطِ والمرآة.. ما رآهْ
على فم.. أغنى من اللّوزة فلقتاه

فقد شخّص نزار أحمر الشّفاه وصيّره عاشقا ولهانا، وجعله يتحدّث عن جمال هذه المرأة، فالشّاعر يتغزّل من وراء أحمر الشفاه بالشّفتين الجذّابتين الرّائعتين ؛ وتنطبق هذه الملاحظة على قصيدة «مانيكور» أيضا، فقد وصف الشاعر الحبيبة وهي

تباشر طلي أناملها بهذه المادّة، تقوم برفق وأناقة بتجميل أظافرها، وتمثّل هذه القصيدة في ديوان «أنتِ لي» لوحة زيتيّة كتبت بريشة فنّان يرسم الألوان والانحناءات والخطوط والأشكال :

قامتْ إلى قارورة محمومة الرّحيقِ
طلاؤُها الورديُّ.. وهْجُ الكَرَزِ الفَتيقِ
واستلّتِ المبْردَ من غمدٍ له رقيقِ
ينحتُ عاجَ ظُفرها المُدلّلِ النّميقِ
وغرّد المقصُّ فوق المَرْمرِ الغريقِ..
(...) واهتزّتِ الرّيشة ذاتُ المقبضِ الأنيقِ
باهرةً ماهرةً فنّانةَ الخُفوقِ
تتركُ بعض قلبها للناحِلِ المشيقِ

استوقف الشاعر الحبيبة ودعاها إلى الاستماع إلى رأيه في فستانها. وهو رأي فنّان بل نبيّ حسب قوله :

مذعورةَ الفستان لا تهرُبي لي رأيُ فنانٍ وعينا نبي

ويجعل الشاعر الشارع الذي تمشي فيه مولّها بها، فاقدا الصواب والعقل، فالشّارع بأحجاره وترصيفه ودروبه بات يبكي من فرط هواه :

هل حجرٌ إذا لُحتِ لم يلتفت لم ينسجمْ، لم يبكِ، لم يطربِ

ويقول قبل ذلك :

حرّكتِ بالإيقاع أحْجَارهُ فأندفعتْ في عِزّةِ الموكبِ

فقد أصبحت للشارع نفسُ عاشق تماما مثل الشاعر

ويختم نزار قبّاني قصيدته بقوله :

مررتِ.. أم نوّارُ مرَّ هُنا؟ لولاكِ وجهُ الأرض لم يُعشِبِ

دوسِي، فمن خطوكِ قد زرَّرَ الرصيفُ، لا للموسم الطيّبِ

والشّاعر مفتون «بثوب النّوم الوردي» و«المايوه الأزرق» و«كُمٍّ الدانتيل»، يقول مخاطبا إيّاه :

يا كُمّها الثرثارَ.. يا مشْتَلْ

رَفِّهْ عن الدنيا ولا تبخلْ

(...) يا رائع التطريز.. يا أهدَلْ

(...) يا كُمَّها.. أنا الحريقُ الذي

أصبح في هنيهةٍ جدْولْ

(...) قطعة «دنتيلٍ» أنا مركبي

إن يرتحلْ مع الندى.. أرحلْ

(...) أيا شراع الخير، لا تختجلْ

شرانقُ الحرير لا تخجلْ..
(...) يا روعةَ الروعةِ، يا كمّها
يا مخملاً صلّى على مخْمـل

هكذا الشاعر يناجي موضعِ هواه، وهو كمّ الدانتيل الذي بات يحمل كلّ معاني الكلف والتعلّق. شيء واحد شغف به الشاعر لدى هذه المرأة، هو كُمٌّ الدانتيل، انتقل هواه إليه، فصار المركز الذي حطّت عليه كلّ أحاسيسه، وتفيض لديه مشاعر الإعجاب والافتتان والوجد، المرأة تساوي عند الحبيب الرّقة والحذق وحسن اختيار اللّباس وألوان أحمر الشفاه، فالمرأة تتزيّن للحبّ، للأناقة، للجمال، لجذب الحبيب، لتبعث الهوى، وتثير عواطف الحبيب.

وبينما المرأة عند شاعر مثل أبي القاسم الشابي تساوي الرّوعة، والجلال، والفتنة يشبهها بـ« فينوس » إلهة الحب والهوى والجمال، وعنوان الخلود والعشق الأبدي، نرى نزار يتغزل بامرأة ذات مايوه أزرق سابحة في الماء الأزرق، يبدأ قصيدته بقوله :

مرحبًا.. مـاردةَ البحـر..   علـى الأشـواق طوفـي
غمّسي في الماء ساقيـن..   كتسبيـح السّيـوفِ..

وينهي القصيدة بهذا البيت :

أنــت.. يا أنــتِ.. لقــد وشَّحتِ بالدّفء خريفي..

والشاعر إذ يفتَن بالوشاح الأحمر يقول للحبيبة في «قصيدة «إلى وشاح أحمر» من ديوان «طفولة نهد» :

سألتُكِ كيف جمعتِ الجراحْ ؟

فجــاءتْ وشـــاح

وتغزّل نزار قبّاني بعارضة أزياء، لكنّه لم يكلف بما تعرض من أزياءٍ بل ما شدّه إليها هو ما فجرت في نفسه من مشاعر جميلة، وعواطف حميمة، وقد تطوّر شعر نزار قباني بعد دواوينه الخمسة الأولى وصارت المرأة عنده صورة إيحاء وإلهام، تفجّر الفنّ وتبعث عوالم فنيّة رائعة في دنيا الشاعر، يقول في قصيدة «حوار مع عارضة أزياء» :

كم أنت، يا سيّدتي، بسيطة وطيّبهْ

مازلتِ تبحثين في ذاكرتي

عن ياسمين قرطبهْ

وعن حمامٍ قرطبهْ

وعن نساء قرطبهْ

مازلتِ تبحثين عن رائحة النعناع،

في عباءتي المقصّبهْ

ويختم القصيدة بقوله معبّرا عما يعانيه الشاعر من ظروف قاسية في عصره :

من نصف قرن وأنا منتظرٌ

رسالةً تجيئني من ياسمين قرطبهْ

فلا خطابٌ جاء من غرناطةٍ

ولا خطاب جاءني من قرطبهْ

ما مرّة

دخلت فيها وطني

إلاّ شعرت أنّني بضاعة مهرّبه !

***

إن من أهمّ محاور غزل نزار قبّاني الاعتناء بتصوير المرأة الحبيبة في علاقتها بأشيائها الصغيرة، خاصّة منها أدوات الزينة، وأصباغ التجميل، فلم يترك منها أداة ولاصبغة لم يذكرها ولم يصوّرها ولم يتغن بها، ولم تهتز عواطفه عند ذكرها، فنتبيّن مشاعره خاصّة منها الوله بأعمال المرأة لتجميل نفسها لتظهر في مظهر فني بديع. فأدوات الزينة تلوح في هذه القصائد

النزاريّة محمّلة بمعان رمزيّة تعبّر عن أنوثة المرأة الطّاغية، ومليئة بإيحاءات تثير خيال الرّجل، وتبعث على الانتشاء بعالم نسائي صرف يتميّز بالذّوق المرهف، والشاعريّة الرّقيقة التي تُلهب الخيال، وتبعث على الحبّ والتعلّق بالجمال الحسّي في علاقته بالجمال المعنوي. ويتغنّى الشاعر بقلم الشّفاه والمشط والحُليّ. فهذه الأدوات تُزيّن وجه المرأة لتبدو أكثر إغراء وإغواء، ففي قصيدة «الشّقيقتان» تسائل الحسناء العاشقة أختها هند عن موضع هذه الأدوات، فالزمن يسرع والميعاد مع الحبيب ما فتئ يقترب :

قلمُ الحُمرة.. أختاهُ.. ففي شُرُفات الظّنّ ،

ميعادي معهْ

أين أصباغي.. ومُشطي.. والحُلَى ؟

إنّ بي وجدا كوجدِ الزّوبعه

تتهيّأ هذه الحسناء للقاء حبيبها في مظهر جمالي فنّي جذّاب. فيصوّر الشاعر اهتمامها بتجميل نفسها وتواصل خطابها لأختها :

نَاولينـي الثّـوب مـن مشجبِـهْ

ومـن الدّيبـاج هاتـي أرْوعَــهْ

سرّحينـي،.. جَمّلينـي.. لَوِّنــي

ظفـرِي الشّاحـبَ إنّـي مُسرعـه
(. . .) إنّـهُ الآن . . إلـى مـوعـدنـا
جبهـةٌ . . باذخــة . . مُرتفعــهْ
(. . .) ركّزي يا هندُ شالي . . فعلَى
سحبـاتِ الرّصـدِ ميعَـادِي معـه

يعلّق إيليا حاوي على قصيدة «الشقيقتان» بقوله : «يُحاول نزار أن يلج إلى حياة المرأة الحميمة في عواطفها العنيفة العابرة وفي وصف حُليّها وزينتها وأدواتها مكتفيا من ذلك كلّه بعرضه وإظهار معرفته بحقيقة واقعه. إنّه يحاول أن يلج إلى مخدعها الخاص بها ولكنّه قلّما يُوفّق في النّزوع من مخدع سكنها وزينتها إلى مخدع نفسها . . . إنّه وُفّق عبر هذه القصيدة بصورة خاصّة في تمثيل واقع تلك المرأة في حدود اللّحظة التي عانته فيها، ولم يعمّقها ولم يمُدَّ أبعادها ولم يصلها بجذور إنسانيّة دائمة، فأنت تراها مقبلة مدبرة مضطربة ترتدي ثيابها، تتسرّح، تتجمّل، تصبغ أناملها كأنّها العروس تُعد نفسها لتُزَفَّ إلى عريسها»(1) .

إلاّ أنّنا نلاحظ أنّ نزار قبّاني صوّر أغوارَ نفسيّة هذه الحسناء التي تستعدّ إلى لقاء حبيبها وقد رسم نزعتها من خلال الصّيغ والتراكيب المختلفة، فالأسئلة تتهاطل على أختها هند :

1) إيليا حاوي : نزار قباني شاعر المرأة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص 132.

- أين أصباغي ومُشطي وحلـــيّ ؟

- جــوربي نــارٌ.. فهــل أنقذْتــه ؟

- رحمة.. يا هند هل أمضي لـهُ ؟

فمن خلال هذه الأسئلة وسائر الأساليب البلاغيّة البيانيّة الأخرى يصوّر نزار قباني في الحقيقة نفسه ونزوتها، وتتكاثر أفعال الأمر :

- سرّحِيني.. جمّليني.. لوّني ظُفري

- ناوِليني الثوب من مشجبه

- ومن الدّيباج هاتي أروعَه

- ركّزي يا هندُ شالي

وتتوالى صيغ النداءُ :

- قلمُ الحُمرة أختاه..

- رحمةً يا هندُ هل أمضي له ؟

- ركّزي يا هند شالي

فالكلمات الحضاريّة المتأنّقة تتوفّر بغزارة في قصائد نزار الغزليّة من أمثال قلم الشّفاه والديباج والأصباغ والمُشط والحُليّ نفسها، ونجد كلمات وتراكيب تعبّر عن عواطف هذه الحسناء. واختلاجات نفسها من ذلك :

ـ كاد أن يهجُرَ قلبي موضعه

ـ إنّي مُسرعه

ـ أنا مبهورةٌ.. مُمْتقعهْ..

تتغزّل هذه الحسناء بحبيبها فتفور نفسها، ويخفق قلبها إعجابا مفرطا به ؛ فهي عاشقة والهة، متيّمة، مفرطة الهوى ؛

ـ جبهة.. باذخة.. مُرتفعه

ـ وفمٌ لوْنُ الفُصول الأربعهْ

ـ لا أسمّيه.. وإنْ كان اسمُه

نَقْرةَ العود وبوحَ المزرعهْ

لا يخرج نزار قبّاني عن نفس الاتّجاه الفني الذي التزمه في التغزّل بالحسناء وهي تتبجّج بالحبّ، وتحاول الإغراء والإغواء، وشدّ حبيبها شدًّا إليها بالتجميل والتأثير الحسّي في مشاعره، نجد نزار في قصيدة «كريستيان ديور» من ديوان «قصائد»، يبدؤها بقول الحبيبة :

شذاي الفرنسي، هل أثملك ؟

حبيبي، فإنّي تطيّبتُ لك

لأصغَرُ.. أصغَرُ.. نقطة عطرٍ

ذراع تُمـــــدُّ لتستقبلـــــك

تناديـك فـــي الركـــن قـــارورة

ويسألنــي الطيـــب أن أسـألـك

يبدو تجديد نزار قباني الفنّي في هذه القصيدة وأمثالها في توخّي هذا النوع من الغزل الذي يبدو فيه الشاعر متباهيا بنفسه، إذ تحاول الحسناء إغراءه بأحسن العطور، فهو في الحقيقة البطل ممّا يُذكّرُ بشعر عمر بن ربيعة الغزلي :

قالت الكبرى : أتعْرِفْنَ الفتَى ؟ قالتِ الوُسطى : نعمْ هذا عُمرْ

قالت الصّغرى وقد تيّمتْهـــا : قد عرفْناه، وهل يخْفى القمر ؟

ذا حبيـبٌ لم يُعــرِّجْ دُونَنَـــا ساقــهُ الحيْـنُ إلينــا والقــدرْ

« ونزار لا يبرحُ يُعنى بزينة المرأة وطيبها، يُحيط بها جميعا في قصيدة أو يُفْردُ لكلّ منها قصيدة لا تدع جزء من أجزائها أو ملمحا من ملامحها دون أن تَلُمّ به وتعرضه في إطار من الغلُوّ الجامح أو التّقرير الواعي، اللّصيق بأديم الحسّ والواقع »(1) .

ففي قصيدة « مانيكور » من ديوان « أنت لي » صوّر نزار قبّاني عمليّة طلاء الحبيبة ظُفْرها تصويرا دقيقا :

قــامــــت إلـــى قـــــارُورةٍ

محمـــومـــة الـــرّحيـــقِ

1) إيليا حاوي : نزار قبّاني : ص 150.

(...) واستلّتِ المبرد مِنْ

غِمدٍ لهُ رقيقِ

ينْحتُ عاجَ ظُفرها

المُدلّلَ النّميق

وغرَّد المقص فوق

المرمر الغريق..

(...) واهتزّت الرّيشة

ذاتُ المقبض الأنيق

باهرةً ماهرةً

فتّانة الخُفوقِ

هكذا يُمثّل نزار قبّاني مشهَداً مسرحيا واقعيّا مضمّخا بمشاعره وأحاسيسه، وهو يقصُّ علينا قصّة قصيرة بطلتها امرأة تصبغ أظافرها باللّون الوردي، ويشبّه الشّاعر الظّفر تارةً بالعاج وأخرى بالمرمر. و«لعلّ الشاعر لم يبتغ من وضع هذه القصيدة إلاّ استكمال الموضوعات المتّصلة بالمرأة حتّى يَصحّ فيه القول إنّه لم يدع أمرا ممّا تُعنى به دون أن يتصدّى له ويصفه بنوع من الأوصاف(...) فهو يشبّه المبرد المسحوب من غطائه بمثل سيف استُلّ من غمده، ويشبّه الظّفر بالعاج والمرمر، مضيفا لكلّ منهما نعتا واقعيّا»(1).

1) نفسه : ص 144.

وإنّ «عبارة نزار هي العبارة المنتقاة، المُتْرفة، المتألّقة»(1) وصورة متأنّقة، ومرآة لقدرة قلمه على الإبداع الفنّي، والدّخول بنا في عالم فنّي رُصّف بكلّ ما هو جميل، مُوح بما يثير الأحاسيس والمشاعر، ويجعلنا نعيش حياة راقية يسودها الحبّ حبّ الجمال في عالم أثير تتبلور فيه العواطف في أسمى مظاهرها وتجلّيها ؛ وهو عالم راقٍ مزخرف، موشّى بكلّ ماهو جميل رائع.

1) نفسه : ص 152.

من خصائص غزل نزار

نجد في جلّ قصائد نزار قبّاني مفردات مستمدّة من معجم مفاتن المرأة : العيون ذات الألوان القُزحية، و العيون انصافية السود، والجفون المنسبلة، المنسدلة، والأهداب الخلابة الساحرة، والشّفاه الواعدة بالقبل، والكتفان العجيبان، والأيدي الممدودةُ بالحبّ :

وتتميّز أشعار نزار قبّاني الغَزليّة بالتّغزّل بأعضاءِ جسدِ المرأة مثل الأهداب والرّموش والنّهود والخدود والقدود والشّفاه والعيونِ والسّيقان، والتشبيب بثياب المرأة مثلَ الفستان والقميص وحمّالة الصّدر والكشمير، ونجد في شعره أيضا ذكرا لأعلام من التّاريخ الإسلامي والعربي والفارسي مثل الرشيد وكِسرى وشهرزاد والسندباد، وذكرا لقبائل ودول مثل البرامكة والفاطميين والحشاشين.

وقد تفوّق نزار قبّاني في اختيار عناوين دواوينه، وهي عناوين إغرائيّة، مثل «طفولة نهد»، و«سيبقى الحبّ سيّدتي» و«الحبُّ لا يقف عند الضوء الأحمر» إلى آخره. وتفوق كذلك باختياره عناوين قصائده مثل : لو كان حبّي شجرا، الوردة والفنجان، ألا تجلسين

قليلا، أريدك أنثى، قدَر أنت بشكل امرأة، كما أنّ العديد من قصائده يرد في قالب قصص تقوم على السّرد والوصف والحوار والتّشويق، وقد مهَر نزار قباني في توزيع البيت الواحد في سطور عدّة والإكثار من وضع النّقاط بين الكلمات.

***

لقد كثر قراء نزار قباني وتعدّدت طبعات دواوينه، وراجت أشعاره في كلّ مكان، في كلّ الأوساط الشعبيّة وغيرها، لدى الشباب وغيرهم، واحتفلت العواصم العربيّة به وأقيمت له مهرجانات لسماع شعره وكان يتلوه بنفس مسرحي.

لقد صورّ نزار قباني في شعره جمال عاطفة المرأة ورهافة حسّها وما يساورها من أفكار وخواطر، وما يعتلج في نفسها من عواطف ومشاعر. فهو يرسم أفراحها وسعادتها بلقاء الحبيب، ويصورّ أحزانها وحيرتها وشقاءها بمفعول الحب، فالمرأة حين تحبّ تتحدّى العالم، وتبيع من أجل حبيبها الدّنيا وما فيها :

متى ستعرفُ كم أهواكَ يا رجلاً

أبيعُ من أجله الدّنيـا وما فيهـا

ومن قصائد نزار التي يتجلّى فيها تحليل عاطفة المرأة العاشقة قصيدته «اغضب» من ديوان «الرسم بالكلمات» لحّنها حلمي بكر، وغنّتها المطربة أصالة. تقول كلمات القصيدة :

اغضب كما تشاءُ..

واجرحْ أحاسيسي كما تشاءُ

(...) أمّا أنا فإنّي

سأكتفي بدمعتي وحزني..

فالصّمتُ كبرياءُ.

والحزن كبرياءُ.

اذهب..

إذا أتعبك البقاءُ..

فالأرضُ فيها العطر والنّساءُ..

وعندما تريد أن تراني..

وعندما تحتاج كالطّفل إلى حناني..

فعُد إلى قلبي متى تشاءُ..

فأنت في حياتيَ الهواءُ..

وأنت .. عندي الأرض والسماءُ..

كان نزار قبّاني رائدا في الشعر العربي الحديث من حيث المعاني والصّيغ والتّعابير، قد تأثّر بشعراء من الغرب مثل بول أليوار Paul Eluardوشارل باقي Charles Péguy. كان نزار

عاشقا لجمال المرأة، يتغنّى بمحاسنها، ويعبّر عن مشاعره نحوها، وأحاسيسه في حبّها. وقد استحوذ على مشاعر القرّاء، وحظي بإعجابهم فصاروا يردّدون أشعاره خاصّة منها التي لُحّنت وغُنّيت وأدّاها كبار المطربين والمطربات من أمثال لطيفة وماجدة الرّومي وكاظم الساهر وعبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة.

وانفرد شعره بخصائص فنيّة تعكس تجديده للشّعر العربي الحديث من حيث المعاني والصّيغ والصّور والتعابير والأشكال وحتّى المفردات اللّغويّة. ويتميّز خاصّة بالإيقاع والنّغم والحركيّة، واستعمال محسّنات بلاغيّة لفظيّة وبيانيّة طريفة، والإكثار من التشبيه والجناس وتكرار الألفاظ والتعابير مثل قصيدة «جسمك خارطتي» من ديوان «أشعار خارجة على القانون» :

زيديني عِشْقًا.. زيديني
يا أحلى نوباتِ جُنوني
(...) زيديني غرقا يا سيّدتي..
إنّ البحر يُناديني
زيديني مَوتا ..
علَّ الموتَ، إذا يقْتُلني، يُحييني..

***

جسمك خارطتي.. ماعادت

خارطة العالم تَعْنيني..
أنا أقدمُ عاصمة للحزن..
وجُرْحي نقْشٌ فِرعوني
وجعِي.. يمتدُّ كبقعة زيت
من بيروت.. إلى الصّين..

وتتواصل قصيدة «زيديني عشقا»(1) بكلمات من عالم التصوّف، وصور جديدة في دنيا الغزل الشعري :

عصفورة قلبي، نَيساني
يا رَمْلَ البحرِ، ويا غابات الزيتون
يا طعم الثّلج،، وطعمَ النّارِ..
ونُكهةَ شكّي، ويقيني
أشعرُ بالخوف من المجهول.. فآويني
أشعر بالخوفِ من الظّلماءِ.. فضُمّيني
أشعر بالبردِ.. فغطِّيني
احكي لي قصصا للأطفال..
اضطجعي قربي.. غَنيني
فأنا من بدءِ التّكوينِ
أبحث عن وطنِ لجبيني..

1) نلاحظ أنّ كاظم الساهر قد تصرّف كثيرا في القصيدة وهي من ديوان «أشعار خارجة على القانون».

(...) عن حُبٍّ امرأةٍ.. يأخذني
لحدودِ الشّمس.. ويرميني

***

نوّارةَ عُمْري، مروْحتي..
قِنديلي. بوحَ بساتيني
مدّي لي جسرا من رائحة الليمونِ..
وضَعيني مُشطا عاجيًا..
في عُتْمة شعرك.. وانسيني
(...) من أجلكِ أعتقت نسائي
وشطّبْتُ شهادة ميلادي
وقطّعتُ جميع شراييني..

وقد سجّل نزار قبّاني في شعره ذكرياته مع نسوة خطفن لبّه، وقضى معهنّ أوقاتا جميلة. فهذه لوليتا كان معها في أحد المطاعم، وقد صوّر هذا اللقاء الحميم في قصيدة من ديوان «قصائد متوحشة» :

لم يبق سوانا في المطعمْ..
شالُ الكشْمير.. على كتفيك..

يرفّ حديقةَ ريحان..

يدُكِ الممدودة.. فوق يدي..

أعظمُ من كلّ التيجانِ..

عيناك.. أمامي صافيتانِ..

صفاءَ سماءِ حُزيْرانِ..

وطفولةُ وجهكِ مُقْنعةٌ

أكثر من كلِّ الأديانِ..

مادامتْ مملكتِي عينيكِ

فإنّي سلطانُ زماني..

يدُك الممدودة.. فوق يدي..

أعظم من كلّ التيجان..

(...) عيناك.. أمامي صافيتان..

صفاء سماء حزيران..

وهذه جانين Janine الفرنسية التقاها في إحدى كباريهات باريس، يقول عنها في قصيدة «وجودية» من ديوان «قصائد» :

كان اسمُها جانينْ..

لقيتها ـ أذكُرُ ـ في باريسَ من سِنينْ

أذكر في مغارةِ التّابو .

وهي فرنسيّه . .

في عينيها تَبكي سماءُ باريسَ الرّماديهْ

وهي وُجُوديهْ

تعرفها من خفّها الجميلْ

من هسهسات الحلق الطويلْ

كأنّه غَرْغرةُ الضوء بفُسقيهْ . .

تعرفها من قَصّة الشَّعر الغلاميهْ . .

من خصلةٍ في الليّل مزروعةٍ

وخصلة . . للّه مرميهْ

(. . .) تقول للجاز : ابتدئ . .

أريد أن أطيرْ . .

مع العصافير الشّتائيهْ . .

إلى مسافاتٍ خرافيهْ

أريد أن أصيرْ

أغنية أو جرحَ أغنيهْ

تمضي بلا اتّجاه

تحت المصابيح المسائيهْ

في حارة ضيقة..

في ليل باريسَ الرماديهْ

(...) تقول للحن : انهمرْ

أريد أن أرودْ

جزائرا في الأرض منسيّةْ

جزائراً مرسومةً بأدمع الورودْ

ليس لها سُورٌ .. ولا باب.. ولا حدودْ

يخلّد نزار قبّاني في هذه القصيدة لحظة عشق لهذه المرأة التي تبرز كأغنية، كلحن ملهم، ذات نفس شاعرة، حرّة، تتُوق إلى عوالم مكوّنة من مشاعر الوجدان، لا تحدّها حدود، تبدو ذات جمال روحي، فنّي، تفهم معنى الحياة، ومعنى الوجود، «هي وجوديّة» تعيش واقعها بكلّ حب، بل تفرض ذاتها، وتحقّق وجودها في الحياة.. فإذا هي أنثى رائعة الإحساس، فنيّة الميول، هي رمز للمرأة الكاملة، والمرأة اللغز، يعبّر نزار قبّاني خلال نحته لتمثال هذه الحسناء عن آلام غربته إزاء هذه المرأة، الفرنسية. في هذا العالم المليء بنغم الجاز المنهمر، وتنتظر

المرأة لحظة انفجار النّغم كي تنفجر فيه رقصا وتجاوبا، فالشاعر يعيش هذه اللّحظات الجماليّة : جمال صورة المرأة، وجمال الجوّ الغامر لهذه الكباريه الفرنسية.

نفى بعض النقاد عن شعر نزار قبّاني الغزلي السّمة الوجدانية، وركّزوا على تصويره الحسّي للمرأة، ولحظات النشوة الماديّة الممتزجة بدقائق الفرح والابتهاج بالتمتّع بجمال المرأة، إلاّ أنّ دواوينه لا تخلو من ومضات وجدانيّة تعبّر عن مشاعر الغربة والكآبة والوحدة في نفس الشاعر. فإن كانت له حبيبات وذكريات مع نسوة كثيرات فقد خلّفن في أعماق نفسه عواطف الشوق والحنين والألم، فهاهو ذا يحسّ في قرارة نفسه بالأسى والشجن لأنّ ماضيا رائعا قد انقضى، ومضى، وأنّ حاضرا افتقد فيه الشاعر حضور هؤلاء الحبيبات اللاتي كنّ سبب فرحته وابتهاجه :

أركبُ آلافَ القطارات..

وأمتطي فَجيعتي..

وأمتطي غيم سجارتي

حقيبةٌ واحدة.. أحملها

فيها عناوينُ حبيباتي..

منْ كُنّ، بالأمس، حبيباتي..

يمْضي قطاري مُسرعا.. مسرعا

يَمضع في طريقه لحم المسافات..

(...) يسألني مُفتّشُ القطار عن تذكرتي

وموقفي الآتي..

.. وهلْ هناك موقفٌ آتي؟

فنادقُ العالم لا تعرفني

ولا عناوينَ حبيباتي..

***

أنا قطارُ الحزن..

لا رصيف لي..

أقصده.. في كلّ رِحلاتي

أرصفتي جميعُها.. هاربةٌ

هاربةٌ.. منّي محطّاتي..(1)

---

1) من قصيدة «أنا قطار الحزن» من ديوان قصائد متوحّشة.



من مفاتن المرأة في شعر نزار

يبحث نزار قبّاني في عيني المرأة عن الحب، إنّه صريعهما، دائم الارتحال فيهما :

لا تَسألِيني.. هل أُحبُّهُما ؟ عينيكِ، إنّي منهُما لَهُما..

أَلَدَيَّ مرآتان من ذَهبٍ ويقال لي لا أعتني بِهما..

أستَغْفِر الفَيْروز.. كيفَ أنا ؟ أنْسَى الذي بيني وبينَهما..

أبِلحْظَةٍ تَنسين سيّدتِي تاريخيَ المرسُومَ فوقهُما ؟

زجميع أخْبَاري مُصَوَّرةٌ يومًا فيومًا.. في اخْضرارهما(1)

إنّ أشعار نزار قبّاني الغزليّة رسائل حب طويلة محمّلة بمشاعر مشتعلة بالعشق، عشق العيون، وصوت المرأة البنفسجي، وصدرها الذي يلتمس فيه الارتياح والطمأنينة والحنان :

عندمَا تبدأ في عينيكِ آلاف المرايا بالكلام

يَنْتهي كُلُّ كلامْ

1) هذه الأبيات من قصيدة «عندما تُمطر فيروز»، من ديوان حبيبتي.

وأراني صامتًا في حضرة العِشق،

ومَن في حضرةِ العِشْقِ يُجاوب ؟

وكما قال نزار مرّة في استجواب له : أشعاري شجرة حبّ تظلّل كُلّ العاشقين، فإنّه يتميّز في دواوينه عموما بأنّه شاعر المرأة وقضاياها الغراميّة، خاصّة علاقتها بالرّجل حبيبًا، وما تحسّ به نحوه، وما يحسّ به نحوها، فالشاعر يعبد الجمال الحسّي، والغنج والدّلال، فقد استأثرت المرأة بشعره، يَصف فيه مفاتن جسدها، ويُورد أحاديثها.

في ديوان «الرّسم بالكلمات» صوّر الشاعر في «القصيدة البحريّة» عينى الحبيبة الزرقاوين المرفأ الذي ينطلق منهما في رحلته إلى بلاد الشموس، وتقلع سفينته إلى آفاق لا محدودة، لا يغيب عنها الضوء :

في مرفـإِ عينيـك الأزرقْ

أمطار من ضوء مسمـوعْ

وشموس دائخة.. وقلوعْ

ترسم رحلتهـا للمطلـقْ

في عيني الحبيبة الزرقاوين إطلالة على مدى بحريّ تحلّق في سمائه طيور مسافرة إلى جزر لتستريح فيها، لكنّ هذه الجزر غير موجودة، والبحر فضاء مطلق لا محدود :

فـــي مرفـــإ عينيـــك الأزرقْ
شبّـــاكٌ بحـــــريٌّ مفتـــوحْ
وطيورٌ في الأبعـــاد تلـــوحْ
تبحث عن جزرٍ لم تُخلـــق..

في عيني الحبيبة الزرقاوين بلون البحر، وبرائحة البحر، يبحر الشّاعر مثل تلك العصافير البحريّة التي تبحث عن جزر نائيّة تسافر إليها ثمّ تعود مرهقة دون أن تعثر عليها، والحبُّ قرين الصعوبة والإعياء والإرهاق والتّعب المميت :

فـــي مرفـــإ عينيـــكِ الأزرقْ
أركضُ كالطفـل على الصخـرِ
أستنشـــق رائحـــة البحـــرِ..
وأعــود كعصفــور مُرهَـــقْ..

عينا الحبيبة الزرقاوان تبعثان على الأحلام، وتدفعان إلى الإبحار مثل السندباد، والغنيمة ملايين الأقمار، وعقود اللؤلؤ والأحجار الكريمة، عينا الحبيبة الزرقاوان من يستريح في مرفئهما يعانق الأحلام السعيدة، ويرجع مكتنز القلب بالأماني والتهاني :

في مرفإِ عينيك الأزرقْ
أحلمُ بالبحر وبالإبحارْ
وأصيدُ ملايينَ الأقمارْ
وعقودَ اللؤلؤ والزّنْبقْ

في عيني الحبيبة الزرقاوين تحدث معجزات، وترسم أشعار، وتتكاثف المعاني، من ينعم بالنظر فيهما يَقرأ آيات شعريّة باهرات :

في مرفإِ عينيك الأزرقْ
تتكلّم في اللّيل الأحجارْ
في دفتر عينيكِ المُغلقْ
من خبّأ آلاف الأشعارْ؟

وينهي نزار قبّاني قصيدته البحريّة الجميلة بهذه الموافقة الصائبة بين العينين الرائعتين وبين البحر المطلق، وما أحلى الإرساء في عيني الحبيبة الحالمتين :

لو أنّي.. لو أنّي.. بحارْ
لو أحدٌ يمنحني زورقْ
أرسيتُ قلوعي كلّ مساءْ
في مرفإِ عينيك الأزرقْ

وفي قصيدة أخرى عنوانها «نهر الأحزان» وردت في ديوان «حبيبتي» يُبحر نزار قبّاني من جديد في عيني الحبيبة. فيشبّهما بنهري أحزان، ونهري موسيقى، فهما هذه المرّة ليستا سوى نهري أنغام وآلام وحسرات قد أضاعتا الشاعر فلم يحصد منهما سوى الأحزان والأوجاع والضياع :

عينــاكِ.. كنهــري أحــزانْ

نهريْ موسيقـى.. حملانــي

لــــوراءِ، وراءِ الأزمــــانِ

نهريْ موسيقى، قد ضاعــا

سيّدتــي.. ثــمّ أضـاعانــي

الدّمــع الأســـودُ فـوقهُـمــا

يتسـاقـــط أنغــامَ بِيـــانِ..

وفي هذه القصيدة رحلة يائسة، والسّفينة تنتظر الحبيبة لتقضي على وحدة الشاعر، لكن الحبيبة لا تأتي، لقد تركت الآلام تعصر قلبه، وتبعثه على الشكوك، وتقضي على فرحته وإيمانه بالوجود السعيد، السّفن باكية، بل مهشّمة، ومصير الشاعر محطّم، والأفق مظلم، كيف لا وقد غابت عن الحبيب الحبيبة ؟

سُفنــي فــي المرفــإ باكيــةٌ

تتمــزّق فـــوق الخلجــانِ

ومصيري الأصفــرُ حطّمنـــي

حطّــم في صـــدري إيمانــي

أأسافــر دونــكِ ليلكتِــي ؟

يــا ظــلَّ اللــه بأجفــانــي

يا صيفيَ الأخضرَ، يا شمسِي

يا أجمــل.. أجمــل ألوانــي

كم يحب نزار قبّاني الارتحال في العيون الزّرق ! ففي قصيدة «رحلة في العيون الزرق» من ديوان «قصائد» يقول :

أُسوحُ بتلك العيــونْ

على سُفنٍ من ظنونْ

ويتجلّى في هذه القصيدة أنّ في العيون النقاء والحنان والياسمين والجزر والألحان. إنّها ليست جفونا بل هي أبعاد من السكون والأناشيد والنّجوم :

أنا فاتحُ الصحو.. فاتحُ

هـذا النقــاء الحنُــونْ

أشُقُّ صباحًا أشقُّ

ضميرا من الياسمينْ

ولنزار حكاية طويلة أيضا مع العين الخضراء، خاطبها الشاعر الدمشقي قائلا :

يا عينُ.. يا خضراءُ.. يا واحةً خضراءَ ترتاح على المرمر..

أفْدِي اندفاقَ الصيف من مقلة خيّرةٍ.. كالموسم الخيّر

يا صحوُ.. أطعمتُك من صحتي لا يوجد الشّتاء في أشهري..

لقد أحس نزار وهو في بلاد الغربة في عيني هذه المرأة بوطنه، هذه المرأة تمثّل له بلاده بعينيها الخضراوين اللّتين رأى فيهما الشمس والحصاد :

أيّ صباحٍ لبلادي غفا وراء هُدْبٍ، مطمئنٌ، طرِي ..

عيناكِ.. يا دنيا بلا آخرٍ حدودها.. دنيا بلا آخرِ

كسّرتُ آلافَ النّجوم على دربٍ ستجتازينه.. فكّري(1)

وفي ديوان «قصائد»، قصيدة عنوانها «إلى عينين شماليتين»، يذكر فيها أنّه قد استوقفته حسناء ذات عينين خضراوين رأى فيهما سماء تشعّ بالنجوم، وحديقة مزروعة بالكروم، وبحارا تسافر عبرها القلاع الخضر بدون نهاية، وبدون مرافئ في الحسبان لكن بدون تعب ولا شقاء، وما أحسن

---

1) هذه القصيدة من ديوان «طفولة نهد».

الارتحال في بحار عيني الحبيبة خاصّة وأنّ هاتين العينين ترمزان إلى وطن الشاعر، وطن التاريخ والكروم والدروب التي توصل إلى الضيعة العائليّة :

استوقفتني، والطّريق لنا ذاتُ العيون الخُضر.. تشكُرُني
... ونظرتُ في عيني محلّثتي والمدُّ يطويني.. وينشرني
ئإذا الكرومُ هناك عارشةٌ وإذا القلوعُ الخضر تحملُني
هذي بحارٌ كنتُ أجهلها لا برَّ - بعد اليوم - يا سفني
معَنا الرّياحُ فقلْ لأشرِعَتي عُبّي المدى الزّيتيَّ واحتَضِني
(...) ماذا؟ أيُتْعِبك المدَى ؟ أبداً لا شيءَ في عينيك يتعبني
أرجو الضّياعَ، وأسترِيحُ له يا ويْلَ دربٍ لا يُضيّعُني

ويختم القصيدة بتوافق الحبيبة مع الوطن، فالحبّ واحد لا ينقسم، الوطن رمز الأحبّة، والأحبّة رمز الوطن :

وتطلّعتْ.. فطريق ضيعتنا مازِلتُ أعرفها وتعرفني
بيتي وبيت أبي، وبيدرُنَا وشُجيرة النّارنج تحتضنُني
تاهت بعينيها وما عَلمتْ أنّي عبدتُ بعينيها.. وطني

وما لبث الشّاعر أن تعشّق العيونَ الزرق، وهل في الهوى اختيار؟ وهل الحب إلاّ قضاء وقدر؟ وهل لا يملك الإنسان إزاء الجمال إلاّ الخضوع والعشق والاستسلام لمشاعر الحبّ والهيام؟

في قصيدة «رحلة في العيون الزرق» من ديوان قصائد، نرى نزار قبّاني يُبْحر بمجدافيه من جزيرة إلى أخرى، والنوتية يرفعون أصواتهم بألذّ الغناء والنشيد، والمرفأ هو العيون الزّرق، عيون الحبيبة :

أسوحُ بتلك العيونْ	على سفنٍ من ظنونْ
أنا فاتحُ الصّحْوِ.. فاتح	هذا النقاء الحنُونْ
أشقٌّ صباحًا أشقُّ	ضميرا من الياسمينْ
وتعلمُ عيناك أنّي	أجدّفُ عبر القرُون
أكونُ جُزْرًا وأُغرِقُ	جُزْرًا، فهل تُدْركينْ ؟
أنا أوّل المُبحرينَ على	أزَلٍ من لُحُونْ
حِبالي هناك فكيف	تقولينَ هذي جُفُونْ ؟
أنا يوم غنَّتْ صواريَّ	تجرحُ صدر السّكُونْ
تساءلتِ والفُلْكُ سكْرى	وبحّارتي يُنشِدونْ
أفي أبدٍ من نجومٍ	ستبْحِرُ ؟ هذا جنونْ
(...) عزائي إذا لم أعُدْ	أن يقالَ : انتهى في عيونْ

***

ومن أغراض شعر نزار الغزلي رسم النهود، لا تكاد تخلو قصيدة من دواوينه خاصة منها الأولى من رسم للنهود، فالنّهد

في هذه القصائد تارة « طيّارة من ورق أو زهرة من نار » وأحيانا « حمامة شامية وشرفة بحريّة تلامس الماء أو لا تخشى الغرق » . ويصوّر الشاعر النهدين « يدوران كما الشمس تدور »(1) ونراه يخاطب الحبيبة :

«كان في صدرك ديكان جميلان

يصيحان كثيرا . .

وينامان قليلا . . .

***

كان في صدرك حقلان من القُطنِ . .

وكان البرنس الأحمر . . مفتوحا من النصف . .

وجرحي كان مفتوحا من النصف . .

ويشبّههما أيضا تشبيها آخر في نفس القصيدة بقوله :

كان نهداك خروفين صغيرين . .

وكانا . . يأكلان العشب من صدري . .

وكان الصوف من كشمير . . منشورا على وجهي . .

وقمصاني . .

وفي كلّ الزوايا . .

---

1) في قصيدة : تنويعات موسيقيّة عن امرأة متجرّدة، من ديوان «أشعار خارجة على القانون».

***

(. . .) كان نهداك حصانين بلا سرْج . .

وكانا يشربان الماء من قعر المرايا . . .

وتمتدّ قصيدة «تنويعات موسيقيّة من امرأة متجرّدة»، على مدى ستّة مقاطع أنهاها الشاعر بقوله :

كان يا ما كان . .

في صدرك أسماكٌ . . وخيلٌ . . وديوكٌ وملوك . . وزغاليل حمام . .

وزغاريد صبايا . .

وأنا كنت على سجّادة الكاشان مرميًا . .

ومن حولي نثاراتُ شموسٍ . .

وفتافيتُ مرايا . . .

وقد أولع نزار بشَعر المرأة، خصه بكثير من القصائد منها قصيدة «تعوّد شعري عليك، من ديوان «الرسم بالكلمات» :

تعوّد شَعري الطويـلُ عليـكْ

تَعَـوّدْتُ أرخيـه كُـلَّ مســاءٍ

سَنَابِلَ قمــح عَلَـى رَاحَتَيـكْ

تعـوّدتُ أتركُـهُ يا حبيبـي..
كنَجْمةِ صيْف علـى كَتفَيـكْ
فكيف تَمَلُّ صَدَاقَةَ شَعـري ؟
وشَعْرِي ترَعْرَعَ بيْـنَ يديـك.

***

حبيبي ! أخافُ اعتيادَ المرايَا عليكْ..
وعِطرِي، وزينةِ وجهي عليكْ..
أخافُ اهتمامي بشكل يَدَيكْ..
أخافُ اعْتيادَ شَفاهِي..
مع السّنواتِ، على شفتيكْ
أخافُ أموتُ، أخافُ أذوبُ
كقطعةِ شمعٍ على ساعِدَيكْ..
فكيفَ ستَنْسَى الحَريرَ ؟
وتنْسى.. صلاةَ الحريرِ على رُكْبتيك ؟

***

لأنّني أحبُّكَ، أصبحتُ أجملْ
وبعثرتُ شعري على كَتِفَيَّ..

طويلاً.. طويلاً.. كما تتخيّلْ..

فكيف تمَلُّ سنَابِلَ شَعْري ؟

وتتْركُهُ للخريفِ وترحلْ

وكنتَ تُريحُ الجبين عليه

وتغْزِلُـهُ باليديـنِ فيُغْـزَلْ..

وكيفَ سأُخْبر مشْطي الحزينْ ؟

إِذا جاءنِي عنْ حنَانكَ يسألْ..

أجبْني. ولو مرّةً يا حبيبي

إِذا رُحْتَ..

ماذا بشَعري سأفْعلْ ؟

***

المقدّمات الغزليّة لقصائد نزار السياسيّة

نزار قبّاني هو شاعر الغزل، وشاعر الهوى المشتعل، الشاعر الذي ولد شعره من رحم العشق، من رحم الهوى(1).

نشرت جريدة العمل التونسية في9 ماي 1969 قصيدةً سياسيّة ألقاها نزار قبّاني في مؤتمر للشعر ببغداد بدأها بأبيات غزليّة عبّر فيها عن أساه وحزنه بسبب الحبّ. فهي قصيدة همزية عموديّة كلاسيكيّة الأسلوب والصّور، استوحى فيها الشّاعر الشّعر الغزلي القديم بمعانيه ومحسناته اللّفظيّة والمعنويّة، يقول فيها :

أكـلُّ أحبابي القُدامــى نَسُونــي
لا نَــوارُ تجيــبُ أو عفــراء
.. سكن الحزْنُ كالعصافير قلبي
فالأسى خمـرة وقلبـي الإنــاء

1) هذه العبارة الأخيرة استعملها الشاعر حين زار مدينة القيروان ، فقال : «القيروان تقول في العشق كلاما خارجا عن كلّ النصوص، كلاما لا يقوله إلاّ الذين ولدوا من رحم الهوى، وشبوا وماتوا على دين العشق».

أنا جرح يمشِي على قدميه

وخيولـي قد هدّهـا الإعيـاءُ

ويمثّل نزار قبّاني نفسه بالسّندباد صاحب المغامرات والأسفار الغريبة والعجيبة، لكنّ السندباد يعودُ كلّ مرّة بالذّخائر والكنوز فبماذا عاد نزار قبّاني ؟ عاد بتجاربه وهمومه وحنينه إلى الأوطان، عاد إلى المرأة الحبيبة. لكنّه مصحوب بأشجانه وأحزانه :

إنّني السّندبـادُ مزّقـه البحـر

وَعَيْنَـا حبيبتـي المينـــاء

مَضغَ الموجُ مركبي وجبينـي

فقدتْه العواصـف الهوجـاءُ

.. وأنا العاشقُ الكبير ولكن

ليس تكفي دفاتري الزّرقـاءُ

لقد اختار نزار أن يبدأ جلّ قصائده السّياسيّة بمقدّمات غزليّة مثلما فعل في القصيدة التي ألقاها بتونس في المهرجان الذي أقامته الأمانة العامّة لجامعة الدّول العربيّة بتاريخ 22 مارس 1980، بمناسبة مرور 35 عاما على تأسيس الجامعة، وبدأ بهذا البيت الذي بات يردّده كلّ الناس في البلاد العربيّة، وهو :

يا تونسُ الخضراءُ جئتكِ عاشقًا

وعلى جبيني وردةٌ وكتاب

فهو يعرّف بنفسه أنّه حامل للهوى تَعِبُ، وأنّه حامل لراية الحبّ في دنيا الناس، وأنّ قلبه يذوب عشقا للنساء، يقول :

إنّي الدّمشقيٌّ الذي احترف الهوى

فاخضوضرت لغنائــه الأعشــاب

أحْرقتُ من خلفـي جَميــعَ مراكبي

إنّ الهــوى أن لا يكـــون إيـــاب

أنا فـوقَ أجفـانِ النّســاء مُكسّــرٌ

قطَعًا، فعُمْري الموجُ والأخشابُ

لـم أنسَ أسمــاء النّســاء وإنّمـــا

للحســنِ أسبــابٌ ولي أسبـــابُ

ويلتفتُ نزار قبّاني إلى حسانِ قرطاج الجميلات المعطّرات، يستعطفهُنَّ، يقدّم لهنّ شكوًى من الأعماق ؛ فهو يشكو من الفاتنات اللاّتي سلبن عقله، كذبن عليه فما واصلنه. إنّها شكوى مُرّة من الهجر والصّدود وانعدام الهوى عند بنات حوّاء :

ياسكناتِ البحرَ .. في قرطاجـةٍ

جفّ الشّذا، وتفـرّق الأصحـاب

أيـن اللّواتـــي حُبُّهُــنّ عبـــادةٌ

وغيابهـنّ، وقُربُهُـنّ، عـــذابُ؟

اللاّبســاتُ قصائـدي ومدامعِــي

عاتبتُهـنّ فمـــا أفـــاد عتـــابُ

أحْببْتُهُــنّ، وهُــنّ مـا أحببننـــي

وصدقْتُهُـنّ، ووعْدُهُــنّ كِــذاَب

يشكو نزار قبّاني في تونس لحسان قرطاجة خيبته المرّة في حُبّه، لم يَرجع من رحلاته في دنيا الحبّ إلاّ بيد فارغة والأخرى لا شيء فيها، بل رجع بدُوار وبكاءٍ من صدّ النّساء الحبيبات، تربض في قلبه حيرة شديدة وحسرة قويّة من جراء مفعول العشق، فكيف خانته الأقراط وفساتين الحسان الفاتنات ؟

إنّـي لأشعُـر بالـدُّوار.. فناهـــدٌ

لي يَطْمئـنّ .. وناهـدٌ يرتـــابُ

هل دولـةُ الحـبّ التـي أسّسْتهــا

سقطت عليّ .. وسُدّت الأبوابُ

تبكي الكؤوس، فبعدَ ثغر حبيبتي
حلفَتْ بأن لا تسْكُرَ الأعنابُ
أيَصدُّ نـي نهْـدٌ تعبتُ برسمـه؟
وتخُونُني الأقراط والأثـوابُ؟

لا بدّ أنّ نذكر أنّ في مقدّمات قصائد نزار قبّاني السّياسيّة توافقات بين حياته الغراميّة وبين تأزّمات السياسة في الشرق الأوسط، ففي هذه المقدّمات تساؤلات ونقاط استفهام عديدة :

مـاذا جَـرَى لممالكـي وبيارِقـي
أدعُـو ربَـابَ.. فـلا تُجيـبُ ربـابُ
أَ أُحاسـبُ امـرأةً علـى نسيانهـا
ومتى استقام مع النّساء حساب ؟
ما تُبْتُ عن عِشْقِي.. ولا استغفرتـه
ما أسخف العُشّاقَ لوْ هُـمْ تابُـوا

وكما بدأ نزار قبّاني القصيدة القرطاجيّة بالغزل أنهاها بمقاطع وجدانيّة صرفة عبّر فيها عن مشاعره الحزينة إزاء نفسه وإزاء وطنه العربي، بل هو يتغزّل بقرطاجة رمزاً لحسانها وحضارتها وتاريخها الأصيل :

بحْريّـــةَ العيْنيْـــنِ.. يا قرطاجـــةٌ

شاخَ الزّمان، وأنتِ بعدُ شبابُ

هلْ لي بِعرْض البحر نِصْفُ جزيرةٍ ؟

أمْ أنّ حُبّـي التّونسِـيَّ سـرابُ؟

أنا مُتعبٌ.. ودفاتـري تَعِبتْ معِي

هـلْ للدّفاتـِر يا تُـرى أعْصـابُ ؟

حُزنـي بنَفْسَجـةٌ يُبلِّلُها النَّـدى

وضفاف جُرحي روضـةٌ مِعْشـابُ

لا تَعْذُلينـي، إن كشفـتُ مواجِعـي

وجْهُ الحقيقـة ما عليـه نقـابُ

إنّ الجنُـونَ وراء نصـفِ قصَائـدي

أوَ ليْسَ في بعضِ الجنونِ صوابُ ؟

هكذا يبثّ نزار قبّاني أشواقه وهمومه لقرطاج، إنّها لحظات مؤثّرة عاشها الشاعر في قرطاج الوحي والإلهام، وكيف لا يستجيب شاعر في مثل رقّة نزار قبّاني ورهافَة حسه إلى نداءات قرطاج الشعريّة والتّاريخيّة والجماليّة. إنّ كلَّ ما في قرطاج يُغري ويُلهم ويبعث الشعور والأفكار والأحاسيس

الفريدة من نوعها. ويُنْهي الشاعر قصيدته في لهفة وتوق عارم مُردّدا اسمَ قرطاج مرّات مُفصحا عن هواه الغلاب، ولا بدع أن يشدو الشّاعر باسم من يهوى.. وقرطاج اسم علم مؤثّر، لما يحفُّ به من معانٍ حضاريّة، وظروف اسطوريّة، ولما يشير إليه من جمال طبيعة، وسحر بحري أبدي وأزلي لا مثيلَ له، وسحر نساء رائعات اللُّطف والظّرافة :

قرطاجةٌ.. قرطاجة.. قرطاجةٌ..

هل لي لصدركِ رجعةٌ ومتابُ ؟

لا تغْضَبي منّي.. إذا غلَب الهوى

إنّ الهوى في طبعه غلاّبُ

فذُنوبُ شعري كلُّها مغفورةٌ

واللّهُ ـ جلَّ جلالُه ـ التوّابُ

***

نزار شاعر الأغاني

يقول نزار قبّاني في كتابه «ما هو الشعر» : «أعرف أنّ الحلم كالعدسة المكبّرة، يجعل الأشياء خرافيّة، غير قابل للتصديق ولذلك يقف العشّاق أمام حبيباتهم مبهورين، ومسطولين فيحسبون فم الحبيبة قوس قزح، ونهدها شجرة دفلى، ويدها سبيكة ذهب، وهم دائما على حق فيما يرون ويقولون».

لذلك كان نزار قبّاني يروي في شعره قصص عاشقات، في قالب مونولوقات أثيرت فيها بعض قضايا المرأة الاجتماعيّة. وتعبّر هذه القصص عن مواقف برزت فيها المرأة قويّة تدافع عن نفسها، مساوية للرجل، تأبى الخنوع والخضوع، وأن تكون لعبة بين يديه، وخلال التعبير عن إبائها، وشموخ نفسها وكبريائها يصوّر الشاعر رقّتها، وسحرها الدائم، ورهافة عواطفها من مثل قولها في قصيدة «أيظنّ» من ديوان «حبيبتي» :

أيَظـنّ أنّي لعبةٌ بيديه ؟ — أنا لا أفكّـر فـي الرجوع إليه

ففي هذه القصيدة تصوير لسماحة المرأة، وعطفها المتدفّق على حبيبها، فالمرأة قد خلقت للحبّ والحبّ وحده، تغفر زلاتِ من تحبّ، وتتأثّر كلّ التأثّر حين يعود إليها محمّلاً بالزهور، ذكرياتُها مرتسمة على وجهه ؛ والكلامُ الحلو العذب على شفتيه :

ايومَ عادَ. كأنّ شيئا لم يكن وبراءةُ الأطفال في عينيه
ليقول لي : إنّي رفيقةُ دَربه وبِأنّني الحبُّ الوحيدُ لديه
حمل الزُّهورَ إليَّ .. كيفَ أرُدُّه وصِباي مرسوم على شفتيه
ما عُدْت أذكُر.. والحرائقُ في دمي كيفَ التجأتُ أنا إلى زَنْديه
خبّأت رأسي عنده.. وكأنّني طفل أعادوه إلى أبويه

وتزيد هذه الصور البليغة القصيدة شاعريّة، وترسم بجلاء أنوثة المرأة في أحلى مظاهرها، هذه الأنوثة التي يطمئنّ إليها الرجل ؛ تقول :

حتّى فساتيني التي أهْملتُها فرحتْ به.. رقصتْ على قدميه
سامحتُه.. وسألتُ عن أخباره وبكيْت ساعاتٍ على كتفيه
وبدون أن أدري تركتُ له يدي لتنام كالعصفور بين يديه..
ونسيتُ حقدي كلّه في لحظة من قال : إنّي قد حقدت عليه
كم قلتُ إنّي غيرُ عائدة له ورجعت.. ما أحلى الرّجوع إليه..

يذكر النّقاد أنّ نزار قبّاني سمع قصّة «أيظنّ» من بطلَتها فتأثّر بها، وهي قصّة واقعيّة كتبها «وبعث بها إلى المطربة نجاة الصغيرة كي تغنّيها لوجود شبه كبير بين بطلة القصّة ونجاة. ففي كليهما ملامحُ الأنوثة والرقّة والضّعف، كما أنّ نجاة استطاعت أن تعبّر جيّدا عن الفكرة التي كانت تعيش في ذهن نزار»(1).

وكان نزار قبّاني يقول: «إنّ نجاة مطربة عظيمة وعندما تغنّي شعره فإنّه يُحسُّ بأن هناك إنسانا يتكلّم من حنجرته الحريرية، وأنّ صوت نجاة بالنّسبة إليه يعبّر عن أعماق الأنثى الضعيفة الخجولة التي تخاف أن تبوح عمّا في عالمها الذاتي من أحاسيس»(2).

لذلك مكّن نزار نجاة من أداء أغانٍ أخرى مثل قصيدة «أسألك الرحيلا» من ديوان «قصائد متوحشة»، وهي تصوّر ذكاءَ المرأة، وخفّة روحها؛ فرغم عزمها على الفراق والقطيعة المرّة فإنّها تستجيب أخيرا لنداء القلب، لنداء الحبّ، فبعد أن تسأل الحبيبَ الرّحيلَ عنها هاهي ذي تعطف، يرقّ قلبها، فقد خلقت المرأة للحبّ، والحبّ قضاء وقدر، مثل ضوء القمر، مثل زقزقة العصفور أيّام الربيع، مثل إيراق الشجر في موسم العطاء والنّماء، مثل نزول المطر بعد القحط والجفاف:

1) مجدي كامل: نزار شاعر المرأة، القاهرة 1994، ص 75.

2) نفسه: ص 117.

انزعْ حبيبي معطف السّفَرْ

وابقَ معي، حتّى نهايات العُمُرْ

فما أنا مجنونةٌ كي أُوقِفَ القضاءَ والقدر

وما أنا مجنونةٌ كي أُطفِئَ القمرْ

ماذا أنا لو أنتَ لا تُحبُّني؟

ما اللّيلُ، ما النّهارُ، ما النّجومُ، ما الشّجرْ؟

ستصبحُ الأيّامُ لا طعمَ لها

وتصبحُ الحقولُ لا لَونَ لها

ويصبحُ الرّبيعُ مستحيلاَ

والعُمُر مستحيلاَ

ابق حبيبي دائما كي يُورقَ الشجر

ابق حبيبي دائما كي يهطِلَ المطر

ابق حبيبي دائما تطلَعُ الوردةُ من قلب الحجر

لا تكترثْ بكلّ ما أقولُ يا حبيبي

في زمن الوحدة، أو وقت الضّجرْ

وابقَ مَعِي، إذا أنا سألتُك الرحيلا

***

ومن القصائد المغناة والتي تُصوّر عواطف المرأة برهافتها وشاعريتها وتدفّق حُبّها وطلاوة عباراتها، القصيدة البائية التي تتفجّر فيها معان كانت كامنة في كيان المرأة، تضمُّها بين جوانحها ولم تكن تجرأ على التّصريح بها، فتهمس بها في مسامعنا فإذا بها رسوم كرفّةِ فراشات، كهبّة نسائم، كضوءِ أقمار، كعطاء الواحد الأحد، كضوعة طيوب :

لا تسألُونِي.. ما اسْمُهُ حبيبي	أخشى عليكم ضوعةَ الطيوبِ
زقُّ العبيـر إن حطّمْتُمـوهُ	غرقْتُم بعاطـرٍ سكيـبِ
واللّهِ.. لوبحتُ بأيِّ حرف منه	تكـدّس اللّيْلَـك في الـدّروب
لا تبحثوا عنـه هُنـا بصـدري	تركتُه يجري مـع الغـروبِ(1)

***

عُرف نزار قبّاني باستجلاء عواطف المرأة، فلئن عبّر عن عواطف الرّجل المحبّ بمشاعر متدفقة وصورٍ جميلة نحو المرأة الساحرة، الفاتنة، المدهشة بجمالها ومحاسنها، فقد استطاع أيضا أن يصوّر ما تحس به المرأة العاشقة من أحاسيس، صوّر حواء الخالدة بغرائزها ومشاعرها وميولها وتعلّقها العميق بآدم موطن هواها منذ خُلقت، فهي وآدم كيان واحد، خُلقا شطرين كي ينضما لبعضهما بعضا في دنيا الحياة، ولتكتمل

1) من قصيدة «حبيبي» من ديوان «أنت لي».

وحدة الوجود، وتتوفّر السّعادة، وينتصر الحب مثلما في قصيدة «ماذا أقول له» التي تغنّيها نجاة أيضا(1)، فبعد التردّد والحيرة والتساؤل عن البطلة أتحب أم تكره أخيرا تكون الخاتمة في هذه القصّة الغراميّة الشعريّة الواقعية أنّ الحبّ يكلّل بتاج النّصر والفوز :

ماذا أقول له لو جاء يسألُني.. إن كنتُ أكرههُ أو كنت أهواهُ ؟
ماذا أقول، إذا راحت أصابعُه تلملم اللّيلَ عن شَعري وترعاهُ ؟
وكيف أسمحُ أن يدنّو بمقعدهِ ؟ وأن تنام على خَصري ذراعاه ؟
غداً إذا جاء.. أُعْطيه رسائله ونُطعم النّار أحلى ما كتبناه
حبيبتي ؟ هل أنا حقّا حبيبته ؟ وهل أصدّق بعد الهجر دعواه ؟

هكذا جاء التّمهيد لحلّ العُقدةِ الصعبة في هذه القصّة، وهي : هل يتحقّق الفراق، وتتمُّ القطيعة بعد الوصال، ومساقاة كؤوس الحب، وتناجي الأرواح بأحلى كلام ؟ أم يكون الحبُّ هو الظافر المنتصر ؟ تقول :

مالي أحدّق في المرآة.. أسألها بأيّ ثوب من الأثواب ألقاهُ ؟
أأدّعي أنّني أصبحت أكرهه ؟ وكيف أكرهُ من في الجفن سكناهُ
وكيف أهرب منه ؟ إنّه قَدَري ؟ هل يملك النهرُ تغييرا لمجراه ؟
(...) الحبّ في الأرض، بعضٌ من تخيّلنا لو لمْ نجده عليها.. لاخترعناه
ماذا أقول له لو جاء يسألني إن كنت أهواهُ ؟ إنّي ألفُ أهواه..

---

1) من ديوان «الرسم بالكلمات» وانظر مجموعتنا القصصيّة : قسمة وطرح.

وتتردّد نفس مشاعر المرأة في سائر أغاني نجاة من ديوان نزار قبّاني، فالمرأة إن أحبّت تُحقّق المستحيل، وتتحدّى الدُّنيا كاملة فتتغنّى العصافيرُ بقصّتها، وتُصفّق أوراق الأشجار بمشاعرها، تقول بإصرار ومباهاة وسعادة من قصيدة «إلى رجل» من ديوان «قصائد متوحشة» :

أنا أحبّك. فوق الغيم أكتُبُها

وللعصافير، والأشجار، أحكيها

أنا أحبّكَ . فوق الماء أنقشها

(...) وللعناقيد.. والأقداح.. أسقيها

أنا أحبّكَ حاوِلْ أن تساعدني

وتقول :

أبيعُ من أجلِه الدُّنيا.. وما فيها

(...) أوْ تطلُبُ الشّمس.. في كفيكَ أرميها

وتُنهي القصيدة بقولها :

لمنْ ضفائري مُنذ أعوام أربّيها ؟

ارجع كما أنت. صحوا كنت أم مطرا

فما حياتي أنا .. إن لم تكن فيها ؟

وتتضمّن قصيدة نزار «أسألك الرحيلا» من غناء نجاة هذا السّؤال : ما معنى الحياة والوجود بدون حبّ ؟ فإن خلت الحياة من الحبّ تصير قفرة يبابا، ويستحيل العيش، وتتجهّم الدنيا ! فالورود لا تنبت إلاّ بالحبّ، ولا تتضوّع رائحتها العطرة إلاّ بالحب، والعصافير لا تغني إلاّ بدافع الحبّ :

ماذا أنا لو أنت لا تُحبُّني ؟ ما اللّيلُ ؟

ما النّهارُ، ما النّجومُ، ما الشّجرْ ؟

ستُصبح الأيّامُ لا طعمَ لها..

وتصبحُ الحقول لا لون لها

وتصبح الأشكال لا شكل لها

ويُصبح الربيع مستحيلا

والعُمْر مستحيلا

ابْق حبيبي دائما كيْ يُورِقَ الشّجرْ

ابْق حبيبي دائما كي يهْطل المطر

ابْق حبيبي دائما كي تطلعُ الوردةُ من قلب الحجر

ولا عجب أن تغنّي مطربات مثل لطيفة وفيروز وفائزة أحمد ونجاة أغاني لا تعبّر إلاّ عن مشاعر المرأة، فلطيفة تُغنّي قصيدة تُفيد أنّ المرأة إذا أحبّت تتغيّر حياتها، وتتلوّن مشاعرها

بأجمل الأصباغ وهي قصيدة «أعنف حبّ عشته» من ديوان «قصائد متوحشة» :

تلُومُني

تلُومُني الدنيا إذا أحْبَبْتُه

كأنّني.. أنا خلقْتُ الحبَّ واخترعته

(...) هذا الهوى أعْنفُ حُبٍّ عشتُه

فليتني حينَ أتاني فاتحا..

يديه لي.. رددْتُهُ

(...) هذا الهوى أجمل حُبٍّ عشتُه

أروع حبّ عشتُـه

فليتني حين أتاني زائرا

بالورد قد طوّقْتهُ..

أمّا فيروز فتغني لنزار من تلحين الأخوين رحباني قصيدة «لا تسألوني» بصوتها الساحر الرقيق :

لا تسْألُونـي مـا اسمُـهُ حبيبـي — أخشَى عليكُم ضَيْعـة الطِّيـوب

واللّه لـو بُحْـتُ بـأيّ حــرفٍ — تكـدّسَ اللّيلـكُ فـي الـدُّروب

ترونَــهُ فـي ضَحْكَــةِ السَّواقـي — في رقصَـة الفراشـةِ اللَّعُــوب

وفي البحر، في تنفُّسِ المراعي — وفــي غِنَــاءِ كُــلّ عنْدلِيــب

تُصوّرُ هذه القصيدة جمال عاطفةِ المرأة، وروعة حُبّها، فالحبيب عندها أجمل ما في الوجود، تتمتّع به بكلّ مشاعرها وبجميع حواسها ؛ اسمه رمز للعطور، ورقص الفراشاتِ، وخرير السّواقي وانسيابها، وجمال الطبيعة في المراعي، وزقزقة الطيور.

أمّا الفنّانة فائزة أحمد فقد غنّت قصيدة «رسالة إلى امرأة مجهولة» بل هي رسالة من امرأة تعتِب على حبيبها كيف تخلّى عنها. فهي تكتب له رسالة ثائرة النّفس، متحدّية إيّاه بعزّة وكبرياء، وترفضه كما رفضها غير آسفة ولا نادمة تقول :

ماذا لو أنّك يا رفِيقَ العُمر قد أخبرتني
أنّي انتهى أمْرِي لديك
فجميعُ ما وشْوشْتني
أيّام كنتَ تُحبُّني
قد بِعْتَه في لحظتين وبعتني
لا تعْتَـذر
فخطوطُ أحمرِها تُضيءُ بوجْنتيك
(...) يا منْ وقفْتُ دمي عليك
وذَلَلْتَني
ودعوتَ سيّدةً إليك
ونَسيتَني

من بعد ما كنتُ الضياء بناظريك
أنا لستُ آسفةً عليك

ومن أشهر قصائد نزار قبّاني قصيدة «رسالة من تحت الماء» التي وردت في ديوان «قصائد متوحشة» وتتضمّن موافقات بين الحب والبحر، بين الغرق في بحر الحب والغرق في الماء ؛ فالشّاعر يصرخ صرخة النجدة، إنّه على شفا جرفِ الغرق. وزاد في شهرة القصيدة أنّها غنّاها المطرب الملقّب «بالعندليب الأسمر» عبد الحليم حافظ :

إن كنتَ صديقي..
ساعدني.. كي أرْحلَ عنك
أو كنتَ حبيبي..
ساعدني.. كي أُشفى منك..

فالقصيدة مركّبة من عديد الجمل الشرطيّة القائمة على أفعال الأمر، إذ تتضمّن ثماني جمل شرطيّة وسبعة أفعال أمر ويعتمد هيكلها على تكرار الجمل والعبارات والكلمات :

لو أنّي أعرِف..
أنّ الحبّ خَطير جدًّا.. ما أحببت..
لو أنّي أعرِف..

أنّ البحرَ عميق جِدًّا.. ما أبْحرْت..

لو أنّي أعرِف خاتمتي..

ما كنتُ بدَأْت..

اشتقتُ إليك.. فَعلّمني

أن لا أشتاق..

علّمني..

كيف أقصُّ جذور هواكَ من الأعماقْ

علّمني..

كيف تموت الدّمْعة في الأحداقْ..

علّمني.. كيف يمُوت القلبُ..

وتنتحر الأشواقْ..

ويكلف نزار قبّاني دوما بصياغة تصوير العينين الزرقاوين الحبيبين أمواجا تجرّ إلى التّلف والفناء في بحر الحبّ :

الموجُ الأزْرقُ .. في عيْنيكَ..

يجرجرني.. نحْو الأعمَقْ..

أزْرَقْ ..

أزْرَقْ..

لا شيء سِوَى اللّونِ الأزْرقْ
وأنا ما عِنْدي تجربةٌ
في الحبّ.. ولا عندي زروقْ..
إن كنتُ أعزُّ عليكَ..
فَخُذْ بيديْ..
فأنا عاشِقة.. من رأسي
حتّى قدمَيْ..
إنّي أتنفّسُ تحت الماء
إنّي أغرقْ..
أغْرقْ..
أغْرقْ..

لقد تغنّى عدد كبير من المطربين والمطربات العرب بقصائد من دواوين نزار قبّاني فأطربوا بأصواتهم، وشنّفوا الآذان بأشعاره. فماذا قالوا عنه ؟ ماذا قالت نجاة وماجدة الرّومي عنه ؟ وماذا قال محمد عبد الوهاب وغيرهم من المطربين والمطربات ؟ إنّ أحاديثهم عنه صادرة من قلوب قد استجابت للمعاني الرقيقة والأنغام الموقعة التي تتميّز بها قصائده.

تقول نجاة بكلمات مرهفة تدلّ على بلاغة صائبة، ومخيال خصب ؛ تقول : «إنّ نزار قباني كان دائما نصيرا ومدافعا عن كلّ دفقات الحبّ المتوهّجة في إطار راق تحوطه كلّ عوامل المتعة والنجاح، وكانت مفردات العذوبة المتموّجة دائما في شعره تجعله يخفق بنبض الحياة المتدفّق المتجدّد بكلّ ما فيها. إنّ شعره هو عطره الوحيد الذي يتعطّر به لأنّه عطر معصور من أزهار الحبّ، وأعشاب الحنين... إنّه جعل الحبّ قضيّته الكبرى».

وتقول ماجدة الرّومي عن نزار بشاعريّة جميلة تعتمد التشابيه البليغة والمحسنات البيانيّة الجميلة، مصورة الرابطة الوطيدة بين صوتها وشعر نزار : «كما يولد الحبّ من أنفاس العشّاق وتتفجّر الأنهار من دموعهم وتتلوّن الفراشات من نظراتهم هكذا يولد صوتي من شعره متّشحا بالنور، وموشّى بالأسرار كأنّه روحي أعتقت من جسدي العميق ودمي الحار، كأنّه أغنيتي رشقت بألف عرس وعيد ! شعره يعيد صياغتي فأغدو سنُونُوةً، قلبي ربيعها يحوّلني فأغدو قصيدةً، صوتي قوافيها، يعمّقني فأغدو قيثارة روحي معانيها. شعره يعيد كتابة طلعتي بالياسمين، ويصحّح بالأزرق عيوني، وبالرّيح وجهي، ويعنون باللّهب صوتي»(1).

1) أورد هذا القول مجدي سيد عبد العزيز في كتابه : نزار قبّاني وحيدا على القمّة في مملكة الشعر، القاهرة 2001.

وتقول لطيفة : «كان نزار قبّاني كلّه نغم وكلّه خيال وكلّه موسيقى وصور جميلة وعالَم آخر بمفرده، قد كان بداخله مطرب وملحّن ومستمع في آن واحد.. إنّ شعره عالٍ وصادق، وهو مدرسة في الشعر(..) إنّ شعره يصل للإنسان البسيط العادي بشكل سهل وجميل»(1).

2) الكواكب، عدد خاص بنزار قباني أمير الأغاني، العدد 2441، 12 ماي 1998، ص د3.

محمد عبد الوهاب ونزار قباني وآخرون

أصدرت جريدة أخبار اليوم كتابا خاصا عنوانه : «محمد عبد الوهاب وأوراقه الخاصّة جدا»، نجد فيه مذكرات هذا الفنان ورحلته مع الفن والناس والمرأة والحب والسياسة والحياة. كما نجد فيه آراء عن بعض أدباء مصر الذين عايشهم وأحبّهم، منهم شعراء الغزل والحبّ والملحنين المشهورين والمغنّين ورجال السياسة والصحافة والأدب والنقد.

ومن أطرف آرائه في شعراء الغزل رأيه في نزار قبّاني، بيّن مكانته الأدبيّة والشعرية بين الشعراء قال عنه : «الشاعر نزار قبّاني ينظم الشعر بعينيه لا بقلبه، فهو مصوّر، أشعاره لوحات جميلة بأسلوب جذّاب بسيط رشيق، لم أشعر في شعره بانتفاضة قلبه أو بمأساةٍ عاشها أو مشكلة مرّ بها واعتصرت قلبه وصاغها شعرا بل إنّه مصوّر، وقد كشف هو عن نفسه، فقد أصدر ديوانا من الشعر عنوانه «الرّسم بالكلمات» إنّه عندما ينظم بلسان المرأة فإنّه يرى مشاكلها ويرقبها بدقّة ويصوّرها نظمًا لأنّه يحسّ بإحساس المرأة بصدق. وأنا لم أقرأ له شعراً حزينًا من الشّجن ما يجعلني أحسُّ بأنّه التاع وسهر وبكى. إنّه رسام بالكلام كما قال هو».

ولحّن عبد الوهاب قصيدة نزار قباني :

أيظـنّ أنـي لعبـة بيديـه   أنا لا أفكّر في الرجوع إليـه

اليوم عاد كأنّ شيئا لم يكن   وبـراءة الأطفـال في عينيـه

غنّتها نجاة. وقد لحّنها عبد الوهاب منذ قرأ أبيات القصيدة في صحيفة مصريّة.

ألقى أحد الصحفيين على نجاة الصغيرة السؤال التالي : يقولون إنّ نزار قبّاني روى في قصيدة «أيظنّ» حكايته مع الأديبة السّوريّة كوليت خوري مؤلفة كتاب «أيّام معه» بل قيل إنّها قصّتك أنت لأنّك أنشدتها بعاطفة جياشة، فما هي الحقيقة بالضّبط ؟

قالت نجاة الصغيرة : ليس شرطا أن أحب حتّى أغنّي عن الحبّ، فالغناء حرفتي، ومن أقدس واجبي أن أعيش ما أغنّي. إنّ المغنية تقوم بدور الممثلة، والممثّلة الناجحة هي التي تتقمّص الشخصيات، وأنا بصراحة قد أكون تقمصت شخصية كوليت خوري وأنا لا أدري.

ثمّ أضافت قائلة : تصوّروا أنّ نجاحي في أداء أغنياتي قد جرّ عليّ المتاعب... وأنا لا أزال أحبّ زوجي، والدليل أنّني أخاطبه بأغنياتي الأخيرة الأربع «سامحني تبت خلاص»،

و«حياة ابنك»، «ووحدي»، «وما أحلى الرجوع إليه»... ولو صدق هذا الزعم لوجب اعتباري خائنة لأنّني على أيّام زوجي أنشدت قائلة للحبيب المجهول : ليه خليتني أحبك(1).

لقد عاش محمد عبد الوهاب مع الشعراء الغزليين. وارتبط معهم بعلاقات خاصّة. بل هم يدينون له بشهرتهم الشعبية التي تخطّت بلدانهم، فلا شكّ أنّ نزار قباني وبشارة الخوري الذي يدعى الأخطل الصغير وأحمد شوقي وغيرهم ما كان يذيع صيتُهم لولا محمد عبد الوهاب. فالفنان الملحّن محمد عبد الوهاب هو الذي يختار القصيدة ويتّصل بالشاعر ويرجوه أن يغيّر بعض الكلمات أو يضيف بعض الأبيات لحاجة فنية، فها هو ذا بشارة الخوري يروي قصته مع عبد الوهاب في كتاب «حكايتي مع النجوم» فيذكر أنّ عبد الوهاب أعجب بقصيدته :

الهوى والشبابُ والأملُ المنشودُ

توحِي فتبعث الشّعر حيًّا

والهوى والشّبابُ والأمل المنشودُ

ضاعتْ جميعُها من يديَّا

يشربُ الكأسَ ذو الحجى ويبقِي

لغدٍ في قرارةِ الكأسِ شيّا

---

1) جورج إبراهيم الخوري : حكايتي مع النجوم، ص 348 ـ 349.

جاءه محمد عبد الوهاب وقال له : كلُّ ما أطلبه منك يا شاعري أن تضيف إلى هذه الأبيات أربعة أخرى كي يصبح هيكل الشعر صالحا لأغنيةٍ تعبّأ على أسطوانة. ونظم الأخطل الصغير الأبيات الأربعة المطلوبة وهي :

أيّها الخافق المعـذّب يا قلبـي

نزحت الدمـوع مـن مقلتيـا

أفحتـم علـيّ إرسـالُ دمعـي

كلّما لاح بارقٌ فـي محيّـا ؟

يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى

ومـا أوّل الوشـاة عليّـا

أنـا العاشـق الوحيـد لتلقـى

تبعاتُ الهـوى علـى كتفيّـا ؟

ويعلّق بشارة الخوري قائلا إنّه لم يتقاض على هذه القصيدة أي ثمن لأنّه قدّمها هدية لمطرب أحبّ شعره، وقد عرض عليه عبد الوهاب ثمنًا وألحّ عليه لكنّه رفض، وممّا قاله له : إنّك لا تعرف صالحك يا شاعري، يجب أن نبحث لك عن وصيّ... تصور أن شوقي تقاضى منّي ألفي جنيه ثمن أوبريت «مجنون ليلى» !

وأرسل محمّد عبد الوهاب لبشارة الخوري يطلب المزيد من القصائد التي يرغب في تلحينها فنظم له «الصّبا والجمال» و«يا ورد»، و«آه ما أحلى الحميّا» و«جفنه علم الغزل».

ولحّن عبد الوهاب لأم كلثوم سبع أغنيات هي : أنت الحب لأحمد رامي، وأمل حياتي لأحمد شفيق كامل، وفكروني لعبد الوهاب محمد، وأغدا ألقاك للهادي آدم، وهذه ليلتي لجورج جرداق، ودارت الأيّام لمأمون الشناوي، وليلة حب لأحمد شفيق كامل.

يتحدّث محمد عبد الوهاب عن هذه الأغاني التي لحّنها لأم كلثوم فيقول محدّدا شعوره إزاءها (ص 404...) :

«أوّل ما لحنت لأمّ كلثوم كنت أشبه بإنسان يزور عاصمة غريبة جميلة يسمع بها ولا يعيشها، رحت يوم ذاك أتلهف على مطالعتها ودراستها والتعرّف إلى معالمها... أخذت أتجوّل فيها بحذر ووجل وحساب حتّى لا أضيع بين شوارعها... كانت البداية في «أنت عمري»، وفي «أنت الحب» أحببت هذه العاصمة، وفي «أمل حياتي» تعمّقت في حبّها، وفي «فكروني» تغلغلت في أعماقها واكتشفت فيها خبايا كنوزها، وفي «هذه ليلتي» هتفت من صميم قلبي : هذه هي أجمل عاصمة ! وفي «دارت الأيام» أصبحت مواطنا في هذه العاصمة.

ومن أقوال محمد عبد الوهاب في المرأة هذه العينات :

ـ كرامة المرأة واستمرار نضارتها في أن تكون معشوقة لا عاشقة.

ـ قال طاغور : حيث يوجد الحبّ يوجد اللّه وأنا أقول : حيث توجد الموسيقى يوجد الحبّ، وحيث الحبّ يوجد الله.

ـ الروح تشد الإنسان إلى السّماء والجسد يشدّ الإنسان إلى الأرض.

ـ لو مشيت وراء منطق جسدي لكنت هلكت.

ـ كثيرا ما أطلب من زوجتي أن تذهب إلى أيّة صديقة لها وتكلّمني بالتليفون وأتكلّم معها طويلا وذلك من أجل أن أشعر بأنّني أحيا حياة العشاق.

نزار قبّاني والنّقّاد

عشرات الكتب اهتمّ فيها أصحابها بأدب نزار قبّاني، وتدلّ عناوينها على اتّجاهات الشاعر الفنيّة وأغراضه الشعريّة وما تميّز به أو امتاز عن سواه من شعراء الأغاني والغزل من هذه العناوين :

- نزار قبّاني رئيس جمهوريّة الشعر،
- نزار قبّاني شاعر المرأة وأحلى ما كُتب فيها،
- نزار قبّاني رحلة الشعر والحياة،
- نزار قبّاني الوجه الآخر،
- نزار قبّاني شاعرا وإنسانا،
- الوطن والمرأة في شعر نزار قبّاني،
- نزار قبّاني وحيدا على القمّة في مملكة الشعر العربي،
- نزار قبّاني شاعر المرأة والسّياسة إلخ. . .

ومن أقوال النقاد في أدب نزار قبّاني :

يقول أدونيس عنه : «ابتكر تقنية لغويّة وكتابيّة خاصّة

تحتضن مفردات الحياة اليوميّة بتنوّعها ونضارتها، ويُشيع فيها النّغم الشعري، صانعا منها قاموسا يتصالح فيه الفصيح والدارج، القديم والمحدث، الشفويّ والكتابي».

ويقول الدكتور عبد القادر القط : «لقد جمع نزار في رؤيته بين التجربة الرّومنسيّة المستجيبة لنداء الوجدان، والاستجابة لطبيعة التجربة العاطفيّة العصريّة التي تُدني المثال الرّومنسي من عالم الواقع وتصوّر ما جدّ في المجتمع من تطور في وضع المرأة وماطرأ على الصلات العاطفيّة من تحوّل».

ويقول أديب آخر : «إنّ لنزار قبّاني مذهبا خاصّا في الشعر يكاد ينفرد به بين شعراء العرب المعاصرين. وعنده أنّ الفن للفن، وأنّ المرأة في شعره تفتن بجمالها العاري من تقع عليه عيناه وليست تلك المرأة التي يتغنّى بها الشعراء العذريون، أو المتصوّفة من الشعراء وإنّما يصوّرها نزار قبّاني إنسانًا جميلا وحسب كأنّها زهرة أرجة... إنّه لا يحن إليها ولا تضمأ روحه إلى وصالها ولا يذرف دمعه عليها بعد رحيلها من حنين هي ذوب القلب».

لقد أبرزت كلّ هذه الأقوال نزار قبّاني نحّاتا في شعره، بمهر في نحت تمثال رائع للمرأة على غرار تمثال أفروديت إلهة الحب في الأساطير اليونانيّة، فهو يمضي وقتا طويلا في تصوّر جزئيات هذه المرأة، وهي امرأة عصريّة تبهر جميع الحواس، وتفتن القلوب، وتبثّ الاندهاش في كلّ مكان تخطر به. ينحت جسما في تفتّحه الأروع، امرأة من كلّ مكان، من مدريد أو

باريس أو دمشق أو تونس، تجسّد الجمال الفني في صورة امرأة كما تبدو في قصيدة لوليتا من ديوان «حبيبتي» :

صار عمري خمسَ عشره

كلُّ ما في داخلي.. غنّى وأزهرْ

كلُّ شيء.. صار أخضر

شفتيَّ خوْخ.. وياقوتٌ مكسّرْ

وبصدري ضَحكت قُبّةُ مَرْمرْ

وينابيعُ.. وشمسٌ.. وصنوبرْ

صارت المرآة لو تلمسُ نهدي تتخدّرْ

والذي كان سويّا قبل عاميْن.. تدوّرْ

فتصوّرْ...

ويقول محيي الدين صبحي عنه : «يريد الشاعر أن ينقل غناء الزّمان في جسم فتاة بنت خمس عشرة سنة. يريد أن ينقل اخضرار الرّبيع وما فيه من شدو وزهر، يريد أن يصوّر انعقاد الزّهر وتشكّل اللّون وبزوغ الشمس وانبثاق الينبوع والغابة والغصن، ثمّ صيرورة كلّ ذلك في جسد معجز كأنّه قطعة جوهر»(1) .

1) محيي الدين صبحي : الكون الشعري عند نزار قبّاني، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا 1982، ص 93.

وحين ينحت نزار قبّاني تمثالا أو تماثيل رائعة للمرأة يستعمل تقنيات تعتمد على مختلف أحاسيس فنّان، فتكثر الألوان، وتتعدّد الأشكال، وتشدو الأنغام، وتتأرّج الرّوائح، وتتوالى اللّمسات الفنيّة مظهرة الحركات، فتبدو الحسناء في أروع مظاهرها الفاتنة الجسديّة والرّوحيّة، آية من آيات اللّه في دنيا الجمال، تذهب بالقارئ إلى الالتذاذ باللّحظة الفريدة التي سمح بها الفعل الفنّي الفريد.

قال عبّاس محمود العقّاد : «لقد دخل نزار قبّاني مخدع المرأة ولم يخرج منه» : ويجب التوقف أمام هذا القول، فكلمة المخدع تعني في القاموس البيت داخل البيت، وقيل إنّ أصل الخداع السّتر لذلك سمّي البيت في جوف البيت مخدعا لأنّه يستر فيه الشّيء، ومن معاني المخدع بضم الميم وكسرها البيت الصغير توضع فيه الأمتعة من أخدع أي أخفى، فإذن نحن نقول إنّ نزار قبّاني لا يُصوّر المرأة في مخدعها فحسب، بل هو يصوّرها أيضا في كلّ مكان ؛ في المقهى، في الشارع، في البيت، في المكتب، يصوّرها صديقة وحبيبة وزوجة، يقول في «سامبا» :

النساءْ

بحرُ طيب وجواهرْ

غرق البهوُ حرا ئرْ

وثراءْ

***

والجدائــلْ

مثـلُ باقــات السنابـلْ

والفســاتيــن مشاتــلْ

والغلائــلْ

***

أيّ مِغــزلْ ؟

حـاك أكتافًا عرايـا

هي في الليل مرايـا . .

تتنقّــل

***

تلـك سامبـا . .

نقلةٌ . . ثــمّ . . انحنــاءهْ

فالمصابيح المضـاءهْ

تتصبّــى . .

***

ما علينــا ؟

إن رقصنـاهـا معــا . .

ودفنّــا الأضلعــا

وانطفينــا

مِن أقوال نزار عن المرأة والحبّ

من الأسئلة التي كانت تُلقَى على نزار قباني من الصّحفيين الثقافيين أسئلة تساعد على فهم اتجاهه الأدبي والفنّي وهي :

ـ منذ أربعين سنة وأنت مواظب على مدرسة المرأة اجتزت المرحلة الابتدائيّة والثانوية والجامعيّة فما هي حصيلةُ هذه الدراسة المضنية، وماذا تعلّمت من المرأة؟

ـ أطلقوا عليك شاعر المرأة ما معنى هذا اللّقب؟

ـ من هي المرأة التي تفرض حضورها على الشّاعر؟

ـ هل تعتقد أنّ المرأة في شعرك كانت سببًا في شهرتك؟

ـ هل النّساء اللّواتي يتَكلّمن ويتحرّكن ويمارسن الحبّ في قصائدك هنّ نساء حقيقيات؟ أم أنّ الفانتازيا الشّعريّة تلعب دورا أساسيّا في تشكيلهنّ ؟.

ـ أنت شاعر مادّته الأساسيّة الحبّ لكنّه يكاد يكون حبّا ماديّا محكم الارتباط بالحياة اليوميّة، فما هو مفهومك للحبّ ؟.

كانت أجوبة نزار قبّاني على هذه الأسئلة وأمثالها من أسئلة الصّحفيين أجوبة مرتدية ألبسة أنيقة من الصّور والمحسّنات البيانيّة المختلفة. ومن الأجوبة المعبّرة عن موقف الشاعر من قضيّة المرأة هذه الكلمات التي تدلّ على النّظرة الرومنطيقيّة التي ينظر بها نزار إلى المرأة :

ـ وضعتُها قُرنفلة بيضاء على صدري.

ـ أنا لم أترك شواطئ المرأة أبدا حتّى أعود إليها، من ذا الذي يترك الرّمال الدافئة، والأصداف والأعشاب البحريّة وسمفونيّة الموج والرّيح ويُغيّر مكانَ إقامته ؟

ـ المرأة ليست الوجه الثاني للقمر، ولكنّها القمر، وليست صورة البحر في لوحة زَيتيّة ولكنّها البحر، وليست جنّية من جنّيات الأساطير ولكنّها جنيّة «مُودِرْن» تلبس الجينز، وترقص على موسيقى الدّيسكو، وتسوق سيّارة مكشوفة السّقف.

ـ المرأة أوسعُ البحار وأعمقُها وأخطرُها.

ـ كُلُّ امرأة تحمل معها خصوصيتها كما تحمل الغَيمة ماءها، والنجمة ضوءها معها، والقصيدة موسيقاها معها، والعين الكحيلة كحلها معها.

ـ المرأة تبقى حتّى آخر لحظة من حياتها تذوب أمام العاطفة الجميلة، والكلمة الجميلة..

ويقول نزار قبّاني عن الحبّ :

ـ الحبُّ هو فضيلتُنا الوحيدة وكُلُّ ما سواه مجموعة من الرّذائل.

ـ إنّ الحبّ في نظري هو التّعويض العادل عن كلّ بشاعات هذا العالم، وحماقاته وجرائمه.

ـ الحبّ عندي عناق للكون، وعناق للإنسان، والوطن قد يصبح في مرحلة من المراحل عشيقة أجمل من كلّ العشيقات.

ـ لا يستطيع أن يتحدّث عن البحر إلاّ من غرِقَ فيه، وعن النّار إلاّ من احترق بها، وعن العشق إلاّ من مات عشقا.

ـ الحبّ يعلّم نفسه بنفسه كما يطير العصفور دون أن يدخل مدرسة طيران، وكما تسبح السّمكة دون أن تدخل سلاح البحريّة.

ـ هل تعرف الغمامة كيف تُمطر، والشّجرة كيف تُزهر والتّفاحة كيف تسقط ؟.

ـ الحبّ هو العلم الوحيد الذي كلّما أبحرتُ فيه ازددت جهلا.

ـ أنا من أسرة تمتهن العشق، والحبّ يولد مع أطفال الأسرة كما يولد السّكر في التّفاحة. في الحادية عشرة من

عمرنا نصبح عاشقين، وفي الثانية عشرة نسأم، وفي الثالثة عشرة نعشق من جديد، وفي الرابعة عشرة نسأم من جديد، وفي الخامسة عشرة من العمر يصبح الطفل في أسرتنا شيخا وصاحب طريقة في العشق. جدّي كان هكذا، وأبي كان هكذا، وإخوتي كلّهم يسقطون في أوّل عينين كبيرتين يرونها.. يسقطون بسهولة، ويخرجون من الماء بسهولة. كلّ أفراد الأسرة يحبّون حتّى الذّبح.. وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق.

***

قراءات في شعر نزار قباني

قراءة في ديوان

«أحبّك.. أحبّك والبقيّة تأتي»

أصدر نزار قبّاني هذا الديوان سنة 1978. يصف في المقطع الرابع من قصيدة «البرتقالة» مفعول الحبّ، وماذا يعلم الحب الإنسان المحبّ العاشق، كيف يغيّر مجرى حياته، وكيف يجعل دنياه خصبة، تفيض بالسعادة والخير والهناء.

يقول نزار وقد علّمه الحبّ اكتشاف الجمال في الحياة :

يُعلّمني الحبُّ ما لسْتُ أعلمُ،
يكتشف لي الغيبَ، يجترِحُ المعجزاتْ
ويفتح بابي ويدخلُ..
مثلَ دُخُول القصيدةِ،
مثلَ دُخُول الصلاةْ..
وينْشُرُني كعبير المانُوليا بكلّ الجهاتْ
ويشرح لي كيف تجري الجداولُ،
كيف تمُوجُ السّنابلُ،
كيف تُغنّي البلابلُ والقبّراتْ

ويأخُذُ منّي الكلامَ القديمَ،
ويكْتُبُني بجميع اللّغاتْ..

يتمادى نزار قباني في التّغزّل بجسم المرأة كعادته في كثير من القصائد، فالعيون تُرسل نظرات كموسيقى، كلحن جميل، أمّا الجسد فمزرعة «بُنْ»، وأمّا العينان فأغان من موسيقى الفلامنكو الحزينة :

يعلّمني الحبّ كيف تكون القصائد مائيّة اللّونِ،
كيف تكون الكتابةُ بالياسمينْ..
وكيف تكون قراءة عينيكِ..
عزفا جميلا على الماندُولينْ
ويأخُذني من يدي.. ويُريني بلادا
نهودُ جميلاتها من نحاس..
وأجسادُهن مزارع بنٍّ..
وأعينُهُنّ غناءُ فلامنكو حزينْ

نلمس في ديوان «أحبّك أحبّك.. والبقيّة تأتي» نزعة صوفيّة تتجلّى خاصّة في قصيدة «تجلّيات صُوفية»، إذ يعبّر فيها الشاعر عن تَوقِ الرّوح إلى معالي السماء، وارتجاج النّفس بعامل الحبّ ، وارتباك القلب فإذا به يهفو إلى الحبيب بكلّ

حنين، وإذا الأشواق تُشعل نيران الوجد في فؤاد المحبّ المتيّم الولهان :

عندما تسطعُ عيناكِ كقنْديل نُحاسيٍّ،
على باب وليٍّ من دمشقْ
أفرُشُ السّجّادة التّبريزَ في الأرض وأدعو للصلاةِ..
وأنادي، ودُمُوعي فوقَ خدّي : مدَدْ
يا وحيداً.. يا أحدْ..
أعْطني القُوّة كي أفنَى بمحْبُوبي،
وخُذْ كلَّ حياتي..

ألاّ يحيلنا هذا المقطع إلى مُحيي الدّين بن عربي دفين دمشق، وإلى مولانا جلال الدّين الرومي دفين قونية بتركيا، وقد علّمه شمس الدّين التبريزي كيف يحبُّ وكيف يعشق وكيف يملأ قلبه بالأشواق(1).

هكذا هو الحب، دموع وصلاة للإله كي يقوّي قلبَ العاشق ليتحمّل آلام الشوق وعذاب الحنين، وما يسبّبه الحبّ للمحبّ من آهات وزفرات وحريق في الوجدان بسبب البعد والهجران ؛ وهكذا يتقرّب المحبّ الملتاع بنأي الحبيب إلى الواحد الأحد يطلب منه المدد والإغاثة قائلا :

1) انظر كتابنا : مولانا جلال الدين الرومي، تونس 2007.

يا وحيداً.. يا أحدْ..

أعْطني القوّة كي أفنى بمحبوبي،

وخُذْ كلَّ حياتي..

لقد استطاع نزار قبّاني أن يُصوّر مفعول عيني الحبيبة في نفس المحبّ، إذ تعتريه حالة فريدة، نادرة، وهذا التّصوّر الدقيق مليئ بالخيالات والأوهام والإيحاءات البعيدة المدى، فلا يمكن لشاعر مُحبّ مثل نزار قبّاني إلاّ أن يتيه في التّصوير، فلا تكفيه صورة واحدة للتعبير عن هذا التأثير إذ تنثال الصّور على قلمه، وتتوالى الرّسوم الموحية رسما بعد رسم، فإذا بالمحبّ في فراديس الجنان، وإذا بالفوانيس تنير دنيا الظّلمات، وإذا بمهرجانات تتلألأ ذهبا ونورا، وإذا بالأغاني والأهازيج تملأ السماء، وإذا بدنيا العاشق دنيا من المعجزات والاكتشافات الرّائعة :

عندما يمتزج الأخضر، بالأسود، بالأزرق،

بالزّيتيّ، بالورديّ، في عينيكِ، يا سيّدتي

تعتريني حالةٌ نادرةٌ..

هي بين الصّحو والإغماء، بين الوحي والإسراء،

بين الكشفِ والإيماءِ، بين الموت والميلادِ،

بين الورق المشتاق للحبّ.. وبين الكلماتِ..

هكذا هو العاشق تراه في غيبوبة من أمره، في حال وجدانية تشبه حال الصّوفي الذي يسهى عن وجوده ويذوب في كيان المعشوق، فالمحبّ والحبيب كائن واحد، كيان واحد، ويستعمل نزار قبّاني كلمات من معجم التّصوّف مثل الصّحو والكشف والوحي والإسراء، وإذا به يسمع هتافات علوية تناديه، يعبّر بذلك عن البهجة والسّعادة، وكلّ ما يغرسه الحبّ في نفس المحبّ من مشاعر الرّضى والنّعيم والهناء بالحبيب :

وتُناديني البساتين التي من خلفها أيضا بساتينُ،
الفراديسُ التي من خلفها أيضا فراديسُ،
الفوانيسُ التي من خلفها أيضا فوانيسُ..
التي من خلفها أيضا زوايا، وتكايا، ومُريدُون،
وأطفالاً يغنون.. وشمعٌ.. وموالدْ..
وأرى نفسي ببُستانٍ دمشقيّ..
ومن حولي طُيورٌ من ذهبْ..
وسماءٌ من ذهبْ
ونوافيرُ يُثرْثرن بصوت من ذهبْ
وأرى، فيما يرى النّائمُ، شُبّاكين مفتوحين..
من خلفهما تجري أُلوفُ المعجزات..

الحبّ في شعر نزار قباني أعراس وراءها أعراس، وحين يبدأ الليل في السّجوّ، مسدلا ستاره على الكائنات، ويلتقي الحبيب بحبيبته لتملّي جمال العينين، يقترن اللّيل بنداءات المآذن، وأفراح الأعراس المستمرّة، وتشمل أرجاء الدّنيا العطور، ومختلف الطّيوب :

عندما يبدأ في اللّيل احتفالُ الصوت والضوء
بعينيكِ.. وتمشي فرحًا كلُّ المآذنْ..
يبدأ العُرسُ الخرافيُّ الذي ما قبله عُرسٌ..
وتأتي سفنٌ من جزر الهندِ، لتهديك عطورا وشموسا..
عندها..
يخطفني الوجد إلى سبع سماواتٍ...

ويتمادى نزار قبّاني في قصيدة «تجلّيات صوفيّة» في تصوير الحب بتأثير من شعراء العشق الصوفي الربّاني كعمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي ورابعة العدويّة والحسين بن منصور الحلاّج(1) وجلال الدين الرّومي، فيُصوّر حال العاشق لحسناءَ رائعة الجمال بصورة العاشق الصّوفي الذي يَذوب وجدا للتّخلّص من تأثير الحواس، ولقطع الصّلة بينه وبين الحياة الماديّة.

---

1) انظر كتابنا : حديقة الرياحين في التعريف بأربعة من عشاق رب العالمين : رابعة والحلاج وابن الفارض وابن عربي، تونس 2005.

فالعاشق المتصوّف في سكرٍ دائمٍ لا يصحا إلاّ بمشاهدة المحبوب، أحشاؤه تحترق، وكبده تتقطّع من شوق لافح لا ينطفئ :

فلقد تأخُذُني الحالُ، فأهتزّ كدرْويشٍ على قرع الطبولْ

مستجيرا بضريح السّيد الخِضر.. وأسماءِ الرسولْ..

***

(...) عندما تبدأ في عينيكِ آلافُ المرايا بالكلامْ

ينتهي كلٌّ كلام..

وأراني صَامتًا في حضرةِ العشْقِ،

ومن في حضرةِ العشقِ يُجاوبْ ؟

فالمرأة عند نزار قبّاني هي الماء والهواء، وكل عناصر الحياة، وهي كل شيء في حياته، هي أنفاسه، ودقّات قلبه، هي الدّم الذي يسري في شرايينه، هي شغل كلّ أفكاره، ومادة أوهامه وخيالاته، وهي مستقبل الإنسان. هي رمز الوجود، وسر الحياة، وقيمة عظمى من قيم الوجود، فلولاها لما كانت الحياة، ولو لم يبعثها اللّه إلى جانب آدم لانعدم الكون.

وفي قصيدة «تجلّيات صوفية»، يكتسب معنى البحر أبعادا صوفية، ورموزا لِلاَ نهاية الحبّ، والمدَى اللامتناهي الذي

تنطلق فيه الرّوح بفضل العشق لتسافر إلى دُنى تنتفي منها المادّة، ويبقى الحنين، ويشتعل الشّوق، ويبدو كلّ شيء في الحياة جديدا، غير مألوف، تنادي العاشقَ فيها الكواكب والأقمار والبحيرات والمسافات التي لم يمش فيها أحد. فالبحر عنوان الرحيل، والاكتشافات الجديدة، والسّفر إلى جنّات المؤمنين :

عندما يرتفع البحر بعينيكِ كسيف أخضرٍ في الظّلماتِ
تعتريني رغبة للموت مذبوحا على سطح المراكبْ
وتناديني مسافاتٌ..
تناديني بحيراتٌ..
تناديني كواكبْ..
(...) يتولاّني حنين للرحيلْ
حيث خلفَ البحر بحرٌ..
ووراء الجزر مدٌّ.. ووراء المدّ جزرٌ..
ووراء الرّمل جنّاتٌ لكل المؤمنينْ
ومناراتٌ..
ونجمٌ غير معروف..

وعشق غيرُ مألوف..

وشعر غير مكتوب..

ونهدٌ.. لم تمزّقه سيوف الفاتحينْ

ومن ديوان «أحبّك.. أحبّك والبقيّة تأتي» هذه القصيدة التي عنوانها «حين أحبّك»، وهي تعبّر عن مفعول الحبّ في الإنسان :

يتغيّر - حين أحبّكِ - شكلُ الكُرةِ الأرضيّهْ..

تتلاقى طرقُ العالَم فوق يديكِ.. وفوقَ يديّـهْ

يتغيّر ترتِيبُ الأفلاكْ

تتكاثر في البحرِ الأسماكْ

ويُسافِر قمرٌ في دورْتي الدمويهْ

يتغيّر شكلي :

أصبح شجراً.. أصبح مطراً..

أصبح ضوءا أسودَ، داخل عينٍ إسْبانيّهْ

***

تتكوّن - حين أحبّكِ - أوديةٌ وجبالْ

تزدادُ ولاداتُ الأطفالْ

تتشكّل جُزُرٌ في عيْنيكِ خُرافيّهْ..
ويُشاهد أهلُ الأرض كواكبَ لم تخطرْ في بالْ
ويزيدُ الرِّزْقُ، يزيدُ العِشْقُ، تزيدُ الكُتُبُ الشّعريّه..
ويكونُ اللّه سعيدًا في حُجْرته القمريّهْ..

***

تتحضّر - حين أحبّك - آلافُ الكلماتْ
تتشكّلُ لغةٌ أخرى..
مُدُنٌ أخرى..
أممٌ أخرى..
تسرع أنفاسُ الساعاتْ
ترتاحُ حروفُ العطف.. وتحبَل تاءاتُ التأنيثِ..
وينبُتُ قمْحٌ ما بين الصفحاتْ
وتجيء طيورٌ من عينيكِ.. وتحملُ أخبارا عسليّهْ
وتجيءُ قوافلُ من نهْديكِ.. وتحمِلُ أعشابا هنديهْ
يتساقط ثمرُ المانْغُو.. تشتعلُ الغاباتْ
وتدقّ طبولٌ نوبيهْ..

قراءة في ديوان «كتاب الحبّ»

أهدى نزار قبّاني هذا الديوان إلى زوجه بلقيس بهذه العبارات : «إلى زوجتي الغالية، بلقيس رفيقة العمر، ورفيقة الشعر».

صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة 1970 بمقدّمة نثريّة طويلة(1) ويضم نصوصا شعريّة غراميّة مثل :

عشرين ألفَ امرأة أحببتْ..

عشرين ألفَ امرأة جرّبتْ..

وعندما التقيت فيكِ يا حبيبتي

شعرت أنّي الآن قد بدأتْ..

قدّم نزار قبّاني «كتاب الحبّ» بقوله : «كتاب الحبّ مُحاولة لكتابة القصيدة العربيّة بشكل جديد، وإلباسها ثوبًا عصريا مريحًا وعمليّا». وانتقد القصيدة العربيّة العموديّة الكلاسيكيّة قديما بأنّ جسدَها قد أرهقَ «بأثواب مُفرطة في

---

1) نشرت هذه المقدمة في الديوان المفرد، ولم يعد نزار نشرها في مقدمة «كتاب الحبّ» في أعماله الكاملة.

طولها واتّساعها ورداءة قصّتها»، ويقول : «الواقع أنّ القطاع الأكبر من شعرنا العربيّ التقليديّ استهلكَ من القماش اللّغويّ ما يكفي لكساء كلِّ سكّان الصّين». وقال عن ديوانه : اللّفظة الشعريّة هنا.. بَرق.. ورقّة جفن.. والتماعة سيفٍ. إنّها طيران عصفور..»، ووصف كتابه بأنّه «نشيد الإنشاد» وقال محترزا : «قد أكون طموحا أكثر من اللازم، ومغروراً أكثر من اللاّزم.. ولكنني لا أتراجع عن أحلامي بسهولة».

لا شكّ أنّ لنزار قبّاني قدرة فائقة على التّصوير والرّسم بالكلمات والتّعابير، وأنّه دوما بل غالبا ما يعطينا في شعره بطاقات سفر يأخذنا إلى عوالم من الخيال، إلى جنّات عبقر، وبلدان كوثر، بصور موحية بالعديد من المعاني والأفكار، ورسوم مثيرة للمشاعر والخواطر :

لن تهْربي منّي.. فإنّي رجُلٌ مقدّرٌ عليك..
لن تخلُصي منّي.. فإنّ الله قدْ أرْسلني إليكِ..
فمرّة.. أطلعُ من أرْنبةِ أذُنيْكِ
ومرّة أطلعُ من أساور الفيْرُوز في يديكِ
وحينَ يأتي الصيفُ يا حبيبتي
أسبحُ كالأسماكِ في بُحيْرتَيْ عيْنيكِ

لقد ولع نزار قبّاني بصورة السمك السّابح في الماء، فهو يقول مشبّها الحبيبة بسمكة :

كمْ تُشبهين السّمكهْ

سريعةٌ في الحبّ .. مثل السمكهْ

جبانة في الحبّ.. مثل السمكهْ

قتلتِ ألْف امرأةٍ .. في داخلي

وصِرتِ أنتِ الملكهْ..

فالسّمكة رمز للانفلات وعدم الاستقرار، ولعلّ هذه الصورة غير موفّقة فنيّا، إلاّ أنّنا نلاحظ نرجسيّة الشاعر في كثيرٍ من المقاطع في هذا الكتاب، نرجسيّة تذهب أحيانا إلى حدود السّادية الواضحة التي كثيرا ما تنطق بها أشعاره. يقول مثلا :

إنّي أحبّكِ عندما تبكينا

وأحبّ وجهكِ غائما وحزينا

(...) تلك الدموعُ الهامياتُ أحبُّها

(...) بعض النساء وجُوهُهنَّ جميله

وتصير أجمل.. عندما يبكينا

ويقول :

.. وكلّما انفصلتُ عن واحدةٍ

أقول في سذاجة :

«سوف تكونُ المرأة الأخيرهْ»

«والمرّة الأخيرهْ»

وبعدها.. سقطتُ في الغرام ألف مرّةٍ

ومتُّ ألف مرّةٍ..

ولم أزل أقولُ :

«تلك المرّة الأخيرهْ..»

فنزار يتباهى بحبّه، يحلّلُ مفعوله في نفسه، فالحبّ يُحدث المعجزات، يجعل المحبّ خارج الزمان، مسحورا مبهورا، متحوّلا من حال إلى حال :

حين أكون عاشقا

تنفجرُ المياهُ من أصابعي

وينْبُتُ العُشْبُ على لساني

حين أكونُ عاشقا

أغدو زمانا خارِج الزمانِ

***

حين أكون عاشقًا

أشعُر أنّي ملكُ الزّمانِ

أمتلك الأرضَ وما عليها

وأدْخُلُ الشّمس على حصاني

***

حين أكونُ عاشقًا

أجعلُ شاهَ الفُرْسِ من رعيّتِي

وأُخْضِعُ الصّينَ لصولجاني

وأنْقُلُ البحار من مكانها

ولو أردْتُ أوقفُ الثواني

بالعشقِ يوقف نزار قباني الزّمن، لكن ليس مثل الشاعر الفرنسي لامرتين الذي استوقف الزمن لاسترجاع ذكرياته بعدَ أن ماتت حبيبته فبقي يبكي حبّه التّعس إذ أنّ نزار يتحدّى الزّمان بحبّه، وتُصبح لديه قُدرة خارقة للعادة، خارقة للزّمانِ.

كتب نزار قبّاني اسم حبيبته فوق الماء، وفوق الريح، مُقلّدا في كتابته إسم حبيبته الشّاعر الفرنسي بول إلوار Paul Eluard الذي كتب كلمةَ الحريّة في كلّ مكان. مُتغنّيا بها، يقول نزار :

كتبْت فوق الريحْ
إسم التي أحبُّـها
كتبتُ فوق الماءْ
لمْ أدْرِ أنّ الريحْ
لا تُحسنُ الإصغاءْ
لم أدْرِ أنّ الماءْ
لا يحفَظ الأسماءْ..

أراد نزار قبّاني أن يجدّد، لكنّ صورة اسم الحبيبة مكتوبة على الريح أو الماء صورة غير موفقة، فلو عوّض الريح بالنّسيم والماء بموج البحر لكان في نظرنا موفّقا توفيقا أكثر إذ أنّ النسيم سفير دائم بين المحبّين، وموج البحر يردّد أغنية الحبّ إلى الأبد :

محفورةٌ أنتِ على وجه يدي..
كأسطر كُوفيةٍ
على جدارِ مسجدِ..
محفورةٌ في خشب الكُرسيّ .. يا حبيبتي
وفي ذِراعِ المقعدِ..
وكلّما حاولتِ أن تبتعدي

دقيقةً واحدةً

أراك في جوف يدي..

ومن «كتاب الحبّ» :

«يا رب، قَلبي لم يعد كافيا

لأنّ من أحبُّها تُعَادِل الدُّنيا

فضَعْ بصدري واحدا غيره

يكونُ في مساحة الدُّنيا

***

ذاتَ العينين السّوداوين،

ذاتَ العينين الصّاحِيتين المُمطرتين

لا أطلُبُ أبداً من ربّي

إلاّ شيئين..

أن يحفظ هاتين العينينْ

ويزيدَ بأيّامي يومينْ

كي أكْتُبَ شعرا

في هاتين اللّؤلؤتين..

***

قراءة في ديوان «كلّ عام وأنتِ حبيبتي»

إنّ أوّل ديوان نشره نزار قبّاني هو ديوان «قالت لي السمراء» نشره سنة 1944، ثمّ ثناه بديوان «طفولة نهد» نشره سنة 1948، ثمّ نشر ديوانا ثالثا سنة 1949 هو «سامبا»، ونشر ديوانا رابعا هو «أنت لي»، ثمّ توالت دواوين العشق والغرام مثل ديوان «قصائد» نشره سنة 1956، وديوان «حبيبتي» نشره سنة 1961 ثمّ دواوين «الرسم بالكلمات» فـ«يوميات إمرأة لا مبالية» فـ«قصائد متوحّشة» فـ«كتاب الحبّ» فـ«أشعار خارجة على القانون».

نشر نزار قبّاني ديوانه «كلّ عام وأنتِ حبيبتي» سنة 1978، بدأه بقصيدة طويلة عنوانها : حب استثنائي لامرأة استثنائيّة، يقول في مطلعها :

أكثرُ ما يُعذّبُني في حبّكِ..

أنّني لا أستطيع أن أحبّك أكثرْ..

وأكثرُ ما يضايقني في حواسي الخمس..

أنّها بقيت خمسا... لا أكثرْ..
إنّ امرأةً استثنائيّةً مثلَكِ
تحتاجُ إلى أحاسيسَ استثنائيّهْ..

تحتاج هذه المرأة الاستثنائيّة كما يشعر نزار قبّاني إلى كتب عديدة تكتب لها، وحزن خاص، وموت خاص بها وحدها، ولغة خاصة بها وأبجديّة أخرى، وطريقة للكتابة مختلفة عن الكتابة للنّساء الأخريات، ورسوم أخرى، وقصائد لم تولد بعد، بل قصيدة وحيدة تكون قصيدتها هي.

هذه المرأة الاستثنائيّة يصوّرها نزار قبّاني بحرا يغوص البحّار فيه لالتقاط الدّرر واللآلي من أعماقه، بل الدّرر متناثرة على شواطئه، وحتّى الخيال فهو عاجز عن تخيّل كيف تنفجر البروق، وتبدو أقواس قزح من نحرها...

ونتلمّس أحيانا كثيرة في العديد من مطالع قصائد الديوان نفحات صوفيّة، تطغى عليها الإشارات والرّموز وأسماء الأعلام الصّوفيّة، لكنّ النّفس الحسّي المادّي لا يغيب عنها، فكان نزار قبّاني يحلّق في آفاق العالم الربّاني بأجنحة مهيضة، لا يكاد يدرك عنان السّماء حتّى تهوي به شهواته إلى حضيض الرغبات الحسية التي يختصّ بها عالم رامبو، وبودلير الشعري. فرغم أنّ نزار يطمح إلى الرّحلة في دنيا الأقطاب الصّوفيّة مثلما في قوله في نفس القصيدة :

أعتذر إليك..

بالنّيابة عن ابن الفارض،وجلال الدين الرّومي،

ومحيي الدين بن عربي..

عن كلّ التنظيرات.. والتّهويمات.. والرّموز..

والأقنعة التي كنتُ أضعها على وجهي، في غرفة الحبّ..

نجده يقول :

إنّني عَاتبٌ على جسدي..

لأنّه لم يستطع ارتداءكِ بشكل أفضلْ..

وعاتِبٌ على مسامات جِلدي..

لأنّها لم تستطع أن تمتصّكِ بشكل أفضلْ..

وعاتِبٌ على فمي..

لأنّه لم يلتفظ حبّاتِ اللؤلؤ المتناثرةِ على امتداد شواطئكِ بشكل أفضلْ..

وتكثر في ديوان «كلّ عام وأنت حبيبتي» كلمات من عالم الجنس والوصال الحسّي مثل كلمات النهود والفم والجسد والغريزة والسّرة والبطن والثوب..

كلّ عام وعيناكِ أيقُونتانِ بيزنْطيتانْ..
ونهداكِ طفلان أشقرانْ..
يتدحرجان على الثّلجِ..
كلّ عامٍ .. وأنا مُتورّطٌ بكِ..
ومُلاحَقٌ بتهمة حُبّكِ..
كما السّماءِ مُتّهمة بالزّرقهْ
والعصافير متّهمة بالسفرْ
والشفةُ متّهمة بالاستدارهْ.

قراءة في ديوان
« أشهد أن لا امرأة إلاّ أنتِ »

أصدر نزار قبّاني ديوان «أشهد أنّ لا امرأة إلاّ أنتِ» سنة 1979. وقد اختار المطرب كاظم السّاهر ليلحّن منه قصيدة رائجة مطلعها :

أشهد أنّ لا امرأةً..
أتقنتِ اللّعبةَ إلاّ أنتِ..
واحتملتْ حماقَتي عشرة أعوام كما احتملتِ..
واصطبرتْ على جنوني مثلما صبرتِ..
وقلّمت أظافري
ورتّبت دفاتري
وأدخلتْنِي روضةَ الأطفالِ..
إلاّ أنتِ..

ولعلّ هذا الديوان هو من أجمل دواوين نزار قبّاني بما يحفل من صور طريفة، ومُحسّنات معنويّة ولفظيّة، وتراكيب لطيفة، واستعمال لطرق بلاغيّة مشحونةٍ بالنّعوتِ المتتالية مثل قوله :

أيّتها اللّمّاحةُ، الشّفّافةُ، العادلةُ، الجميلهْ..

أيّتها الشّهيّة، البهيّةُ، الدائمة الطفولهْ

وقد دبّجت الأبيات بالأفعال الدالة على مفعولِ العشقِ في النفس :

أشهد أنّ لا امرأة..

تجتاحُني في لحظاتِ العشْقِ، كالزّلزالْ

تُحرِقني.. تُغرقني..

تُشعلُني.. تُطفئني..

تَكْسِرُني نصفين كالهلالْ..

ويكثر فيها التكرار البليغ للمفردات :

أشهد أنّ لا امرأة..

جاءت تماماً مثلما انتظرتْ..

وجاء طُولُ شعرها، أطولَ ممّا شئتُ أو حلُمْتُ ..

وجاء شكل نهدها.. مطابقا لكلّ ما خطّطتُ أورسمتُ..

أمّا الصّورُ التي امتاز بها نزار وتميّز، والتي تلفت بما تضمّنت من استعارات جديدة، وتشابيه لطيفة، فهي في مثل قوله :

أيّتها البحريّةُ العينين.. والشّمعيّةُ اليدين.. والرّائعةُ الحضورْ
أيّتها البيضاءُ كالفضّة.. والملساءُ كالبلُّور..
أشهدُ أنّ لا امرأةً..
على مُحيط خَصرها تجتمعُ العُصُورْ
وألفُ ألفُ كوكبٍ يدورْ..

ومن قصائد هذا الديوان اختار كاظم السّاهر تلحين قصيدة «قُولي أحبّك» غنّاها لما فيها من معان تمجّد الحبّ، وتصوّر مفعوله في القلب، إذ ينتقل المحبّ بالحبّ إلى عالم ثريّ ساطع بالنور، حافل بالثمار، تكتنفه القداسة من جميع الجهات، ويحلّ الربيع الدائم فيه، ويصير المحبّ سلطانًا، بل نبيًّا، مسافراً في دنيا الوحي والإلهام، محلّقا في دنيا إلهيّة بنور الحبّ، وجلاله، وقدسيّته :

قولِي (أُحبّكَ).. كي تزيدُ وسامتي
فبغير حُبّكِ لا أكون جميلا..
قولي (أحبّكَ) كي تصير أصابعي
ذهبًا.. وتصبحُ جبْهتي قنديلا
قولي (أحبّكَ) كي يتمّ تحوّلي
فأصيرَ قمْحا، أو أصير نخيلا

الآن قوليها، ولا تتردّدي
بعضُ الهوى لا يقبلُ التأجيلا
قُولي (أحبّكَ) كي تزيد قداَسي
ويصيرَ شعري في الهوى إنجيلا
(...) قُولي (أحبّكَ) كي تصير قصائدي
مائيةً، وكتابتي تنزيلا
ملِك أنا.. لو تُصبحين حبيبتي
أغزو الشموسَ مراكبًا وخيولا
لا تخجلي منّي، فهذي فُرصتي
لأكون ربًّا.. أو أكون رسولا..

ومن قصائد الديوان قصيدة عنوانها «لا تُحسببين جميلةً»، وهي رسالة شعريّة مثيرة بالنسبة إلى القارئ، يُبيّن الشاعر فيها أسباب ميله إلى بعض الحسان، ورغم نفيه عن إمرأة الجمال والإثارة وكلّ مقاييس الجمال، وأن يكون في قدر حبيبها أن يعشقها العشق الذي يذهب به إلى ضفاف الجنون، فهو يفسّر ميله إلى هذه المرأة بأسباب ليست في الواقع إلاّ تعبيرا عن جمال هذه المرأة الفاتنة المدهشة، وعن قدرتها على غزو القلوب، والإثارة والغواية والتحكّم على قدرِ الحبيب،

يقول نزار قباني مُصوّرا أحاسيسه التي لم تدفع به إلى الحبّ والهوى المجنّح بل تدفع به إلى الإعجاب والاندهاش :

لا تُحْسبين جميلةً جدّا.. إذا أُخذتْ مقاييسُ الجمالِ..

لا تُحْسبينَ مثيرةً جدا.. إذا دار الحديث عن الغواية والوصالِ

لا تُحسبين خطيرة جدًّا.. إذا كان الهوى

معناهُ أن تتحكّم امرأةٌ بأقدار الرجالِ..

لكنّ شيئا فيكِ سريّا.. وصوفيا.. وجنسيّا.. وشعريّا..

يُحرّضُني.. ويقلقني.. ويأخذني

إلى ألف احتمالٍ.. واحتمالِ..

لا تُحسَبين جميلةً..

لكنّ شيئا فيكِ يخترق الرجولةَ.. مثل رائحة النبيذِ..

ومثل عطرِ البُرتقالِ..

شيئا يفاجئني.. ويُحرقني.. ويُغرقني..

ويتركني بين الحقيقة والخيالِ..

لا تُحسبين جميلة..

لكنّ شيئا فيكِ مائيا.. طفوليا.. حضاريا..

عراقيا.. وشاميا.. يكلّمني

ويرفض أن يجيب على سؤالي..

قراءة في ديوان
«أشعار خارجة على القانون»

أصدر نزار قبّاني هذا الديوان سنة 1972، وبدأ آخر قصيدة منه بقوله : «العالم عشق، فاتّحدوا يا أهل العشق»، وهذا الديوان هو الكتاب الحادي عشر الذي ظهر تاريخيا لنزار قبّاني. أمّا الكتاب الأوّل فهو «قالت لي السمراء» صدر سنة 1944، ونال به صيتا ذائعا، صدّره ببيتين يمكن عدّهما شعارا لكلّ أشعاره، ويمكن اتخاذهما عنوانا لاتجاهه الشعري الغزلي وهما :

قلبي كمنفضة الرّماد.. أنا إن تنبشي ما فيه.. تحترقي

شعري أنا قلبي.. ويظلمني من لا يرى قلبي على الورق

***

كيف تبدو المرأة في ديوان «أشعار خارجة عن القانون»؟

لقد صوّر نزار قباني المرأة في صور شعريّة موحية بالصّفاء والوداعة وملهمة بالخير المرتجى، بل هي الأمل لمفاجآت رائعة سوف تأتي، وميعاد يُنتظر :

إنّي أحبّكِ .. جدولاً .. وحمامةً
ونبوءةً تأتي من الزمن البعيدِ..
وقصيدةً .. وعدتْ ولم تحضرْ

هذه المرأة المرتجاة ذراعاها برّ أمان واستقرار :

أحبيني قليلا..
(...) واتركي لي يدكِ اليُمنَى قليلاً..
فذراعاكِ هُما برُّ الأمانْ..

فأين يستريح الشاعر العاشق إذا لم يكن بين يدي الحبيب اللّتين تجودان بالعطاء المستمر، والحب الأثيل، والكرم الجزيل؟

يُصوّر نزار قبّاني الحبيبة في صورة العصفورة الظّريفة، الصّادحة بالحبّ، الموحية بالحنان، السّخيّة بالوُدّ والعطف، المانحة للقرب والوصال : وهي الحياة والصفاء والنقاء، يرى فيها البركة، وسر الوجود، هي عنده كلّ الخير العميم، وربيع الحياة، ومحرقة قلب العاشق الولهان :

عصفورةَ قلبي. نيْسانِي
يا رمل البحر، ويا غاباتِ الزيتونِ
يا طعمَ الثّلجِ ، وطعم النّارِ..

وهي زهرة العمر، والقنديل الذي يبدّد ظلمة النّفس، والظلمة المحيطة بالمحبّ :

نوّارةَ عُمْري. مروحتي

قِنديلي. بوْحَ بساتيني

مُدّي لي جسْراً من رائحة اللّيمونِ..

والمرأة عند نزار قباني رمز الخصب والحياة، وعنوان الثروة الرّوحية، وواهبة السّعادة والانطلاقة نحو عوالم جميلة رائعة، وعنده لولا المرأة الحبيبة لما كانت الأرض تستحق الحياة فيها، فهي الهواء والماء والشّجر :

لو لم تكُوني أنتِ في لوْحِ القدَرْ

لكنتُ كوّنتُكِ يا حبيبتي

بصورة من الصّورْ

كنتُ استعرتُ قطعةً من القمرْ

وحفنةً من صَدَفِ البحرِ.. وأضواء السّحرْ

كنتُ استعرتُ البحرَ.. والمسافرين.. والسّفرْ

كنتُ اخترعتُ الغيمَ يا حبيبتي

ـ من أجل عينيكِ ـ وأنزلتُ المطرْ..

لو لم تكوني أنتِ في حياتي..

ما كان في الأرض هواءٌ .. أو مياهٌ .. أو شجرْ.

ما كان في الأرض بشر..

المرأة عند نزار قبّاني هي سرُّ الحياة، من أجلها خُلِقَ الكون، ولولاها لما جَلَت الدّنيا ولما نزَل المطر، ولما كان الخصب والعطاء. ولولاها لما ملئت حياته «بالورود وبالنّجوم وبالحمام» كما يقول.

ويصوّر نزار قبّاني تأثير العشق في النفس بأنّه يحدث تغيّرا كبيرا يصيب الوجدان، بل ثورة نفسيّة في الكيان، وتتبدّل نظرة الإنسان إلى الوجود، كلّ شيء ينقلب في صورة جديدة، ويولد المحبّ من جديد بفضل الحبّ، وتلبس الدنيا في عينيه ثوبا مزهرا شفّافا جميلاً، وينعدم منها كلّ ما هو مُظلم ورديء ومرّ، وتعانق فرحة الحياة قلب العاشق المتيّم. يقول في قصيدة «أسئلة إلى اللّه» :

يا إلهــي !

عندما نعشَقُ ماذا يَعْترينا ؟

ما الذي يَحْدُثُ في داخِلنا ؟

ما الذي يُكْسَرُ فينا ؟

كيف نرْتدُّ إلى طور الطفولهْ
كيف تغْدو قطرةُ الماء مُحيطًا ..
ويصير النخلُ أعلى..
ومياهُ البحر أحلَى..
وتصيرُ الشّمس إسْوَارًا من الماس ثمينا
حين نَغدو عاشقينا ..

***

يا إلهــي
عندما يضْربُنا الحبُّ على غير انتظارِ..
ما الذي يذْهبُ منّا؟
ما الذي يولد فينا ؟
كيف نغدو كالتلاميذ الصّغارِ..
أبْرياءً ساذِجِينا..
ولماذا عندما تضحك محبوبتُنا ؟
تُمْطر الدّنيا علينا ياسمينا..
ولماذا عندما تبكي على ركبتنا
يُصبحُ العالم عصفوراً حزينا؟

***

يا إلهـي

كيف نستسلم للحبّ، ونُعطيه مفاتيح الأمانْ ؟

وإليه نحمل الشمع، وعطر الزّعفرانْ

كيف ننهار على أقدامه مستغفرينا..

كيف نسعى لحِماهُ .. قابلينا

كلّ ما يفعل فينا..

كلّ ما يفعل فينا..

وتشدّ الشاعر كلُّ مفاتن المرأة، يشدو بها، ويتغنى، لم يترك من محاسنها شيئا إلاّ صوّره، ورسم تأثيره في نفسه، فالعينان قد أخذتاه إلى جزر البنفسج، وهما دوما مسافرتان بالحبيب إلى أمكنة جميلة تلذُّ فيها الإقامة، وتحلو الحياة :

شكرا لعينيك المُسافرتين وحدهما..

إلى جُزر البنفسج، والحنينْ..

شكْرا ..

على كُلّ السّنين الذاهباتِ..

فإنّها أحلى السّنينْ ..

تقترن دائما عينا الحبيبة في شعر نزار قبّاني بالبحر والطيور البحريّة المسافرة، صوّرهما وقد حلق فيهما البَجَع البحريّ القادم من الآفاق البعيدة، نحو سماوات جديدة. تأخذ العاشق للأحلام وتحقيق الأماني والآمال :

إنّني مُستسلم للبَجَع البحريّ في عينيكِ،

يأتي من نهايات الزمانْ

وهكذا فإنّ صورة الطيور المحلّقة بين أهداب الحبيبة لا تكاد تفارق مخيّلة نزار قبّاني، ففي «قصيدة التّحدّيات» يقول متسائلا :

كيف تغفو بين أهدابكِ آلافُ الطيورْ

أو يكونوا اقتنعوا..

أن نهْديكِ يدُورَانِ كما الشّمسُ تدورْ..

يرى نزار قبّاني في عيني الحبيبة صورة فصل الصّيف المُوحي بالبحر والشاطئ الرّملي، بل يفتخر بأنّه استطاع دون سائر العشّاق الشّعراء أن يلمح هذه الصّورة مقترنة بفيروز البحار :

أتحدّاكِ أنا أن تذكُري

رجُلاً من بين من أحبَبتهمْ

أفرغَ الصّيف بِعينيك.. وفيروزَ البحورْ

ومن ولع الشاعر بجسد المرأة وافتتانه به أن عدّه خارطة جديرة بالعناية، والجغرافيا الحقيقية الأساسيّة، والعالم الواقعي :

جِسمكِ خارطتي.. ما عادتْ
خارطة العالمِ تعنيني..
أنا أقدمُ عاصمةٍ للحزْن..
وجُرْحي نقشٌ فرعوني
وجَعِي.. يمتدُّ كبقعةِ زيتٍ
من بيْرُوتَ.. إلى الصّين..

أمّا القامةُ الفارعة فيصوّرها «كالنّخل العراقي طويلة»، وأمّا الشَّعر فسرير من ذهب، قد صوّره في صور مختلفة، فهو تارة شعر مفكوك :

إنّني قد نَسيتُ أبعاد جسمي
في متاهات شَعركِ المفكوكِ

وتارة يشبّهه بمزرعة من الحبق ومرّة أخرى بغابة من النخيل، «شاغِل الدّنيا وسارقَ كُلّ غابات النّخيل»، ويغار الشاعر من المشط الملازم لشعرها الأسود، ويتمنّى أن يكون شيئا من أشيائها الجميلة :

مُدّي لي جسرا من رائحة الليمونِ..

وضَعيني مُشطا عَاجيا..

في عُتمة شعرِك.. وانسيني

هكذا هي المرأة الحبيبة عند نزار قبّاني، فهي ذات مفاتنَ لا تُحصى ولا تعدّ، الشعر، الثغر، النحر، النهد، العينان، القامة الفارعة، واليدان الحريريتان :

يدكِ المطمورةُ تحت يدي..

منديلٌ مشغُولٌ بحريرْ

ومفاتنُ جِسمكِ لا تُحصى

والعُمْر قصيرْ..

***

قراءة في قصيدة «قرطاجة»

كانت أولى زيارات نزار قبّاني إلى تونس سنة 1964 بدعوة من كتابة الدّولة للشؤون الثقافيّة والأخبار إذاك، قدّم فيها أمسيات شعريّة بدار الثقافة ابن خلدون والمسرح البلدي بتونس والمسرح البلدي بصفاقس.

أمّا الزيارة الثانية فقد قام بها في مارس 1980 بدعوة من الجامعة العربيّة بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لتأسيسها. وقدّم مساء السبت 22 مارس 1980 أمسية شعريّة شارك فيها عدد من الشعراء العرب تونسيين وغيرهم.

وفي هذه الأمسية ألقى قصيدته الشهيرة «أنا يا صديقة متعب بعروبتي»، مخاطبا فيها تونس قائلا :

يا تونسُ الخضراءُ جئتُكِ عَاشِقًا
وعلى جبيني وردةٌ وكتابُ
إنّي الدّمشْقِيُّ الذي احْترفَ الهوى
فاخْضَوْضرت لغنائه الأعشابُ
أحْرَقْتُ من خلْفي جَميعَ مراكِبِي
إن الهَوَى أنْ لا يكونَ إيَابُ

أمّا الزّيارة الثالثةُ لتونس فقد وقعت في أفريل 1995 بدعوة من مهرجان الفنون بالقيروان، وقدّم بها أمسية شعريّة وألقى كلمة عن القيروان خاطب فيها أهلها بشاعريّة وحبّ كبيرين.

قال عنها : «**شكرا.. لمدينة القيروان.**

أوّلُ مدينة عربيّة ترتكب فضيحة حبّ الشعر.. وحبّ الشعراء..

«أوّل مدينة تكحّل عينيها بقصائدنا..

وتعلّقها كأسوارِ الفيروزْ في معصميها..

وتكتُبها بماء الذّهب على قميصها..»

وقال :

«القيروان تقول في العشق كلاما خارجا على كلّ النُّصوص..

كلاما لا يقوله إلاّ الذين وُلدوا من رَحِمِ الهَوى، وشبُّوا.. وشابُوا.. وماتوا على دِين العشق..».

وقال :

«إنّ الشّعر والحبَّ هما الطفلان اليتيمان اللذان لا يُريد أحد أن يعترف بهما.

والقيروان هي المدينة العربيّة الاستثنائيّة التي لا تخجَل بأمومتها.. ولا تتخلّى عن حضانة أولادها..

لذلك جئنا نحن الشعراء العرب الذين تخلّت عنّا أمّهاتنا لنرضع من حليب هذه التونسية الجميلة، بعد أن متنا عطشا.. وجوعا.. وقهرا.. في الملاجئ، ودُور الأيتام.. وإصلاحيات الأحداث العربيّة..»

وخاطب أهل القيروان المستمعين إليه إذاك :

«يا أهل القيروان :

شكرا لأنّكم تحبّون الشعر.. وتحبّون الشعراء.

ولن يتّهمكم أحد بشرائنا، أو رشوتِنا، أو إغراقنا بالذّهب أو بالنّفط.. فلا أنتم تملكون نفطا، ولا نحن لدينا هواية جمع غالونات البنزين..

يكفينَا منكم أن تُهدونَا شجرة.. أو وردة.. أو بنفسجة أو حبّة زيتون.. أو عنقودَ عنب.. أو مقعدا خشبيّا في حديقة.

فنحن عشاق دراويش، لا يطلبون من حبيتهم سوى خصلة من شعرها.. أو خيط من قميصها.. أو قبلة على الماشي، أو على القاعد.. لا فرق..»(1).

أمّا القصيدة العصماء، التي ألقاها نزار قبّاني في تونس فقد فاض فيها حبّه لها وعشقه.

1) انظر كتابنا : تونس ملهمة الشعراء، تونس 1997، فصل خاص عن نزار قباني.

لقد كانت تونس محطة للشّاعر استراح فيها من همومه الشخصيّة، ونسي أتعابه ومشاغله، وجد فيها الواحة التي احتضنت شعره وأفكاره فإذا هو البلبل الصدّاح :

يا تونسُ الخضراءُ.. جئْتُكِ عَاشِقًا
وعلى جبيني وردةٌ وكتابُ
إنّي الدّمشْقِيُّ الذي احْترفَ الهوى
فاخْضَوْضرت لغنائِه الأعشابُ
أحْرَقْتُ من خلْفي جَمِيعَ مراكِبِي
إن الهَوَى أنْ لا يكونَ إيَابُ

هكذا أحرق الشّاعر جميع مراكبه ليلتجئ إلى شاطئ قرطاج حيث الهدوء والسّكينة، حيث تصفو النّفوس وتُرْهف العواطف، وتسعد المشاعر، حيث الشّذى والعطر والخضرة وجمال العيون :

يَا سَاكنات البحر.. في قرطاجةٍ
جفّ الشّذى، وتفرّق الأصحابُ
.. هلْ في العُيون التونسيّة شاطئٌ
ترتاحُ فوق رماله الأعصابُ ؟

.. بحريّـةَ العينيــنِ يا قرطاجـــةٌ

شاخَ الزّمان وأنتِ بعـدُ شبــابُ

هل لي بعرض البحر نصفُ جزيرةٍ ؟

أمْ أنّ حُبّــي التُّونســيّ ســرابُ

هكذَا يتغنَّى الشّاعر بتونس وقرطاجة : الموقعَ والطبيعة والنّاسَ والبحرَ والتّاريخ والحاضر :

قرطاجـةٌ .. قرطاجـةٌ .. قرطاجـةٌ..

هل لي لِصدْرِكَ رَجْعَةٌ ومتَابٌ ؟

لا تغْضَبي منّـى .. إذا غلـبَ الهـوى

إنّ الهـوى فــي طبعــه غــلاّبُ

فَذُنُوبُ شِعْري كلّهـا مغفــورةٌ

واللّهُ ـ جـلَّ جلالُـه ـ التّــوّابُ..

ردّد الشاعر نزار قبّاني اسمَ قرطاجةَ لشاعريته ولجمال المكان ولِما يوحِيه من مشاعر وأفكارٍ وخواطرَ متعلّقةٍ بحضارتها ومجدها، ولقرطاجةَ نداءات شعريّة وتاريخية وجماليّة ملحّة، إنّ كلَّ ما في قرطاجة يُغري ويُلهم ويُوحي بالأشعار، وعديد الأفكار، إنّ جمال قرطاجة فريد من نوعه في

العالم، إنّه جمال يملك المشاعر ويستهوي النفوس ولا يملك الإنسان فيها إلاّ أن يتغنّى بإسم من يحبُّ ويهوى.. ونزار قباني الذي تغنّى بالمرأة وخصّها بألذّ الأشعار في جلّ دواوينه لا يملك إزاء حسن قرطاجة وبهائها الرّائع إلاّ أن يفتن بها وينظم هذه القصيدة الغزليّة الجميلة في قرطاجة الحضارة والتألق، قرطاجةَ الرخاء والحسن الباهر، قرطاجة عروس المدن، عروس التاريخ والجغرافيا :

بدأ الزِّفاف، فمَنْ تكون مُضيفتي
هذا المساءَ ومَنْ هُو العَرّابُ ؟
أأنَا مغنّي القَصْرَ.. يا قرطاجةٌ
كيفَ الحُضُورُ ؟ وما عليَّ ثيابُ
.. يا تُونِسُ الخضراءُ.. كيف خلاصُنا ؟
لم يبق من كُتُبِ السّماء كتابُ.. ؟

هكذا بحث نزار قبّاني عن الخلاص في تُونس، كما بحث فيها عن الحبِّ وصفاء العيون وإخلاص القلوب للقضايا العربيّة والإنسانيّة:

يا ساكناتِ البحرَ.. في قرطاجةٍ
جفّ الشّذى وتفرّق الأصحابُ
أيـنَ اللّواتي حُبُّهُنّ عبادةٌ
وغيابُهنّ، وقربُهنّ، عذابُ

اللابسَــــاتُ قصائــدي ومدامعِـــي

عـاتبتُـهـنَّ فمـا أفــاد عتَـــابُ

أحببتُـهــــن، وهــنّ ما أحببنـنــي

وصــدَقْتهُــن ووعدُهُــنّ كِــذَاب

إنّـــي لأشْعُـــر بـالــدُّوّارِ.. فناهــدٌ

لــي يَطْمَئِــنٌّ، ونـاهــدٌ يرتــابُ

هـلْ دولــةُ الحــبٍّ التـي أسّسْتُهـــا

سقطتْ عليَّ.. وَسُدّتِ الأبواب

.. أيَصُدُّنـي نهْـدٌ تعبْــتُ برسمـــه

وتخُونُنـي الأقـراط والأثـــوابُ ؟

مـاذا جَـرَى لممالكِـي وبيـارِقِـــي ؟

أدْعُــو ربـابَ.. فلا تُجيـب ربــابُ

أأُحاســبُ امــرأةً علـــى نسيانِهـــا

ومتَى استقام مع النّساءِ حِسـابُ ؟

ما تُبْتُ عن عشقي.. ولا استَغْفَرْتُه

ما أسْخَفَ العُشَّاقَ لوْ هُـمْ تابوا...

صدر للمؤلف

- قسمة وطرح : مجموعة قصصيّة، تونس ـ ليبيا 1977
- رسالة المناعي إلى أحمد باي، تحقيق، تونس 1977
- أبحاث في الأدب والتاريخ، تونس 1979
- الجزآن الثالث والرابع من اتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف 1979
- ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني، جمع وتحقيق، تونس ـ ليبيا 1981
- رهين المحبسين أبو العلاء المعري، تونس 1981
- محمود المسعدي وكتابه حدث أبو هريرة قال، تونس. 1982
- محرز بن خلف لزين العابدين السنونسي (تحقيق) 1981
- الامتاع والمؤانسة للتوحيدي 1983
- أبو عثمان الجاحظ، تونس 1983
- في الإصلاح والحنين إلى الأوطان، تونس 1984
- في النقد والأدب الشعبي، تونس 1984
- اللّيل يأتي، مجموعة قصصيّة، تونس 1985
- قضايا في النثر العربي المعاصر، سيول 1985
- مظاهر من الاتصال الفكري والأدبي بالغرب، بغداد 1986
- مقامات السيوطي، تحقيق، تونس ـ اسطنبول 1988
- البشير خريّف حياته ورواياته، تونس 1988
- من سيول إلى سنغافورة :رحلة إلى الشرق الأقصى، تونس 1988
- في الحضارة العربيّة بتونس، سوسة 1988

- طوق الحمامة لابن حزم 1988
- أبو القاسم الشّابي لزين العابدين السنوسي 1988
- النبيّان : ابراهيم الخليل ويوسف عليهما السلام، قصتان للأطفال، تونس 1989
- عبد الله بن المقفع، تونس 1991
- دراسات ووثائق عن الحركة الاصلاحيّة بتونس، سوسة. 1992
- أمثال لقمان الحكيم : 6 قصص للأطفال، تونس.......... 1992
- عبد الرحمان بن خلدون، تونس 1993
- الحنين إلى الأوطان في شعر ابن الأبار وحازم القرطاجني، سوسة 1993
- أبو الطيب المتنبي، تونس 1993
- أشواق الليل، مجموعة إبداعيّة، تونس 1994
- الجنرال حسين، حياته وآثاره، تونس 1994
- المسافر، مجموعة قصصيّة، تونس 1995
- رادس عبر العصور، تونس 1995
- الحياة الأدبيّة بتونس في العهد الحفصي - جزآن، تونس. 1996
- الشعراء العشاق، تونس 1996
- المواسم والأعياد بتونس، تونس 1997
- الجواري المغنيّات، تونس 1997
- زين العابدين السّنوسي، تونس 1997
- تونس ملهمة الشّعراء، تونس 1997
- المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تونس 1998
- أبو الحسن علي الحصري القيرواني، تونس 1999
- مائة رواية تونسيّة، تونس 1999
- المرأة في عيون الشعراء 2000

- أعلام من المغرب والمشرق 2006
- مع كتبي 2006
- تونس في الرحلات والعالم بعيون تونسية 2006
- حافظ الشيرازي شاعر العشق والعرفان.................... 2006
- الصادقيّة، خيرالدين مؤسّسا ومحمد العربي زروق مديرا... 2006
- مناقب أصحاب أبي الحسن الشاذلي الأربعين........ 2006
- صفحات من تراثنا الحضاري.......................... 2006
- مالك بن أنس وأئمّة السنّة............................ 2007

الفهرس

ر.د.م.ك. : 8 ـ 654 ـ 61 ـ 9973 ـ 978

مطبعة علامات : 072 797 71
تونس ـ 2007

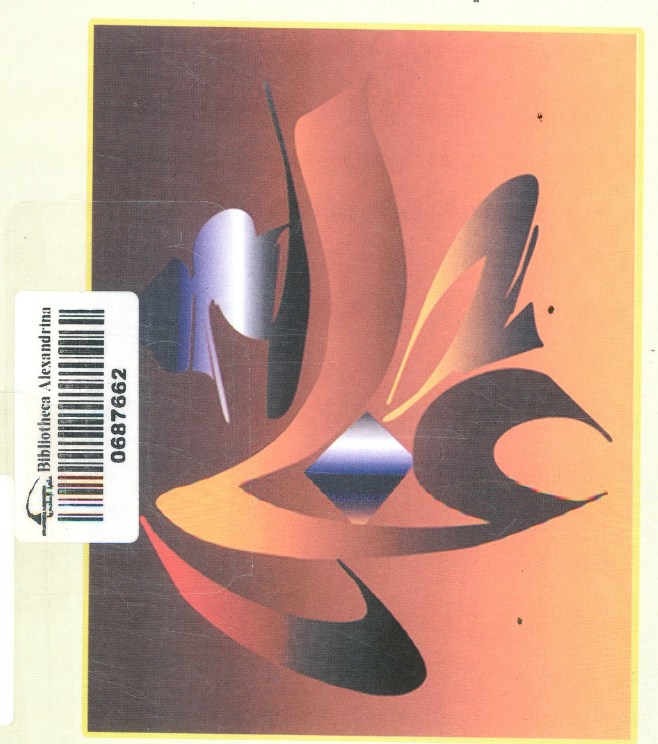


يعرّف هذا الكتاب بنزار قباني، هذا الشاعر الذي خصّص جلّ شعره لحبّ المرأة، واتّفق جميع النقّاد على أنّه شاعر المرأة. وقد قسمنا الكتاب إلى ثلاثة أبواب :

1 ـ ظروف نشأة نزار قباني وأطوار حياته.

2 ـ نزار قباني شاعر الغزل والأغاني، معجمه الشعري، وشعره الخاص بالتفاصيل الصغيرة لدى المرأة.

3 ـ قراءات في عدد من دواوينه.



الثمن : 15 د.ت